٧ ألوان

مجموعة قصصية

اسم الكتاب: ٧ ألوان
تأليف: سارة المغازى
تصميم الغلاف : عبد الرحمن الصواف
رقم الإيداع: 978-977-6376-62-5
الترقيم الدولي: 2014\14416

***

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

دار كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بحوار محطة مترو ضواحى الجيزة– الهرم
محمول: 01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com

© جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من المؤلف؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

٧ ألوان

سارة المغازى

مجموعة قصصية

ذات يوم رسمت لوحة
خطت يدها شمس وغيوم ومطر
ثم أزعجها في الرسم شيءٌ ناقص
فالتفتت حولها تبحث له عن أثرٍ

فتّشت بين أدراج غرفتها... في وجوه الناس
بعثرت صناديق تحوى رسائل ذكريات
لكنها عبثا لم تجد ذلك الشيء
فأطرقت تبحث عنه بين الحجر

أشتد الظلام فعادت لمرسمها
وجدت الخطوط مكتوبة كما هي
المطر والغيمة والشمس في اللوحة
لكن الحزن كان في النظر

جلست أمامها طويلا ... ثم أغمضت عينيها ونامت
فأتاها قلبها وربت عليها وابتسم
ومنحها سبعة ألوان
كي ترسم قوس المطر

إهـداء

إلى كل رسـام يهـاب أن يبـدأ لوحتـه الفنيـة ويظـل محتـارًا أيـن يضـع أول نقطـة حتـى يعتـاد بيـاض الصفحـة وفراغهـا ويمنعـه خوفـه أن يـرى حلمـه مرسـوما بخـط يـده

أهـدى إليـه حلـما بكـرا مـا زال صاحبـه يرسـمه بخطـوط متعرجـة وأصابـع حـذرة
وظلام ليل يأتيه حينا فيفقد الطريق لروحه ومرسمه
لكنه مهما تحيّر وتخبّط وتعب
سيظل متشبثا بفرشاته لا يتركها حتى يرى حلمه
لوحة مكتملة الألوان
تماما كما ظل مرسوما في قلبه طوال عمره

يا عندليب ماتخــافش من غنوتك ..
قول شكوتك واحكى على بلوتك ..
الغنوة مش ح تموّتك إنما ..
كتم الغنا هو اللي ح يموّتك!!

صلاح جاهين

عـــــــــــود

فى أحد أيام خريفٍ باردٍ ، وقف في الشرفة يراقب أوراق الشجر الذابلة وهى تقاوم الريح وتستمسك بجذورها بلا هوادة... ظل يراقب ذلك الحديث الخافت بين ورقة بعينها وهمسات الريح ، وظل ينصت لتوسلات الأولى أن تعطيها فرصة أخرى كي تقوى وتخّضر ، وصرامة وحزم الثانية أن تشبثك الساذج بالحياة هو ضرب من الجنون. وأخذت تُذكّرها بفرعها الذى ضاق بحملها وعيون الناس التي ملت منظرها الأصفر الذابل ، وأوراق الشجر التي بانتظار رحيلها كي تنبت وتحيا هي الأخرى من جديد ... كل ذلك والورقة لازالت تقاوم والريح تشتد وظن الفتى أن العمر سيمضى أمام عينيه وهو واقف يراقب تلك المعركة الأبدية للحياة ، فهَّم بالدخول ... وفجأة توقفت الريح وساد السكون ثم انفصلت الورقة في بساطة وسلمت قيادها للريح... وكأن كليهما في لحظة من الصمت قد فهم ما يعنيه الآخر وعرف قدره، فاندمجا في سلامٍ وذهب كلٌ منهما إلى مصيره وهو يحمل رضًا ويقينًا تجاوز حدود رغبة الحياة وخوف الموت...

أثار ذلك المشهد فى نفسه الشجن فأخذ يدندن بلحنٍ ثم تهدج صوته حينما استعاد ذكرى ما ... أحس بحركةٍ ورائه ، فألتفت ليجد أباه يستند على باب الشرفة وكأنه واقف منذ الأبد ثم ابتسم وقال: (لك يا ولدى قلب موسيقي)

أثارت تلك العبارة فرحه وضيقه في ذات الوقت .. شعر بأنه مدح أثير رغم أنه لم يفهمه ، و ضايقه أن أباه لم يثنِ على طبقات صوته ومخارج كلماته ولم يلفت انتباهه سوى (آهة) قلبه الصغيرة المتقطعة ... شعر أنه لازال بعيدًا عن درب الموسيقى الذى يهواه ويحلم به ، وأن طريقه منذ البداية لم يكن مشجعًا كما أراد وتمنّى...

من كل الآلات الموسيقية التي حاول التدرّب عليها لم يعرف يوما لما يحب العود بالذات ... رغم محاولاته الدائمة لمجاراة موسيقى عصره ، ورغبته في ابتكار ألحانٍ جديدة تجمع الشرق والغرب في نوتة واحدة ، إلا أنه كان يرنو ويتمايل رأسه طربا كلما سمع عازفا يدوزن(*) عوده ... كان يعجب من أين يأتي ذلك السحر ولما قلبه وحده من يفهم تلك الألحان ... حاول ذات مرة أن يكتب ما يشعر به أثناء سماعه لتقاسيم أحد العازفين ، لكنه فشل في ذلك فشلا ذريعا ولم يعاود المحاولة مرة اخرى ... فقد أدرك أن قلبه في تلك اللحظة قد توارى واختبأ حينما شعر أنه على وشك الخروج كي يصبح كلمات مبتذلة بين أيدى الناس...

من يومها أدرك أنه محبٌ للموسيقى لا عازفٌ لها ... أنه لا يقدر أن يكتب كلمات قلبه ... ربما يخاف ... ربما يفضل الاحتفاظ بها لنفسه ... لكن قلبه لا بدّ أن يظل بمنأى عن عيون البشر...

(*)دوزن العود: أى ضبط اوتاره

حينها توقف عن حلم الموسيقى والغناء وحصر جل اهتمامه في خوض معترك الحياة والنجاح فيها بكل قوة ...

كان الأذكى والأقدر والأنجح بين زملاء دفعته ومن بعدها عمله... لا يستطيع أن يدعى أنه أحب الطب ، لكنه وجد في فتح قلوب الناس وعلاجها عزاء وأمنية خفية أنّه ربما لو فتح قلوبًا أكثر لاستطاع أن يفهمهما ويترجم كلماتها .. لكنه في أغلب المرات لم يجد أمامه سوى قلوب متشقّقة هدّها السخط تارة واليأس تارةً اخرى ، فأصبحت تنبض نبضات روتينية متواترة لا روح فيها ..

تعجّب كثيرًا لأنه ظن أن كل القلوب بداخلها أوتارا من لحم ودمٍ دافقٍ يصعد بها ويهبط عازفا أجمل الألحان .. لقد ظنها أكثر نورًا واتساعًا بالداخل وسيجد بها صورة للكون يعيش داخلها صاحبها بشكل أسعد عن مرارة حياته العادية ... لكن شقاء الحياة لم يكن يصيب الوجوه فحسب ، بل استطاع على غفلة من الناس أن يخترق قلوبهم ويتسلّق أسوار وحصون الأمل كي ينثر الظلام بداخلها ...

كلّما رأى ذلك ازداد خوفًا على قلبه فأغلق عليه وزاده تحصنا وحماية ... لقد كان يظن دائما أنه أغلى ما يملك ، وليس لأحد أن يجرحه أو يمسّه بسوء فأصبح يرى الناس منه وجها متصلبا وضحكة لا تكاد تجاوز شفتيه ... فلم يكن ليجرؤ أن يضحك

مـن أعـماق قلبـه ، لعـلّ النـاس والدنيـا تجـد في ذلـك مدخـلا سـهلا إليـه ..

مضـت بـه الحيـاة والسـنون وازداد صمتـا وعزلـة عـلى نفسـه ، وإن كان شـديد النجـاح واسـع المعرفـة ... عكـف عـلى القـراءة وأحبّهـا وأحـب النـور الـذى تبعثـه في عقلـه... ارتـاح حينـما وجـد في الحيـاة مـسرّة أخـرى وجـزءًا آخـر مـن جسـده قـادرًا عـلى السـعادة ، فأخـذ يهتـم بـه أكـثر ويحتكـم إليـه في كل الأمـور ... حتـى صـار كل شيء وكل قـرارٍ بـل وكل شـعورٍ يتجـه تلقائيـا إلى عقلـه ، ويـذوب فيـه ، ويخـرج عـادةً بنتيجـة راضيـا عنهـا كل الرضـا ... حتـى شريكـة حياتـه التـي تزوجهـا وأسـماء أبنائـه وتحديـد أفكارهـم ومواهبهـم وقطيعتـه لأخيـه ، ومصالحـه مـع أبيـه ، كانـت كلهـا مدونـة بالأرقام والكلـمات كي تطمئنـه أنـه لم يكـن مخطئًـا يومًـا في اتخـاذ أي قـرارٍ منهـا ...

مـرّ الزمـان وشـبَّ أبنـاؤه عـن الطـوق فرحلـوا ، و يئسـت منـه زوجتـه ففارقتـه... تعجـب مـن نفسـه إذ لم يشـعر بالحنـين لهـذا ولا ذاك ، حتـى رفيـق عمـره وأحلامـه حينـما خاصمـه وهجـره لم يهتـز لـه جفـنٌ ... كان مـن أسرع ردود الافعـال التـي اتّخذهـا في حياتـه حالمـا عـلا صـوت صديقـه عليـه أمـام مرضـاه وأطبـاء مشـفاه ... فاكتفـى بابتسـامة بـاردة ، وفوجـئ صديقـه بورقـة إقالتـه مـن المشـفى تُسـلم إليـه في ذات اليـوم... وكأن الـتروّي وسـماع الأعـذار وتجشّـم عنـاء الصفـح رفاهيـة لا يسـتحقها أحـدٌ منـه ..

حينما عاد لمنزله فى تلك الليلة أغلق على نفسه الباب وتدثر جيدا على غير العادة ... لا يدرى لما في تلك اللحظة خاف !!... خاف أن يصل لتلك المرحلة من القسوة التي لا رحمة فيها ... لم يكن خوفه هذا نابعا من إشفاقه على الناس بقدر إشفاقه على نفسه واليوم الذى سيأتي وينتقم منه كل من قسى وتسلط عليه ... لكن الأيام تمضى وكل مرة يَسلم فيها ويجد الأعذار للخروج فلم يعد حتى هذا الخوف يخيفه وبدت الدنيا في عينيه مجرد معادلات لم يخونه ذكائه يوما في فك رموزها وحلّها بأقل خسائر ممكنة ...

فى يوم كان يسير على شاطئ النهر ... شعر بالحر الشديد فاقترب بوجهه من صفحة الماء ، لعل نسيم شهر (تموز) يتسلل داخل ثيابه وخلايا وجهه ويخفف من ضغط عقله ويُهوّى بين تروسه التي لا تقف ... أتى بكرسي وجلس وأخذ يراقب أنوار الفنادق والعوّامات تتلألأ على صفحة النهر ، وتصنع صورة جميلة الألوان لكنها غير محددة المعالم ... لم يرتاح لذلك ... لقد اعتاد أن يكون الشيء واضحا كي يفهمه ... محددًا كي يحلله ويفسره... تلك الألوان وترقرق الماء وذلك النسيم يتهامسون بصوت يضايقه ... لم يعد هناك من يفسر تلك اللغة... لم يكن يفهمها سوى قلبه وقد أغلق عليه و"ردم" فوقه التراب ونسيه بالداخل ، وأقسم ألا يعود إليه ... لن يعود لمن أهان كرامته وأحنى رأسه وجعل العمر يمضى أمام عينيه وهو واقف ينتظر

الوهـم والدنيـا ومـا فيهـا رحلـت عنـه وسـبقته ... لقـد اسـتطاع أن يلجـم إحساسـه ويحكـم وثاقـه وعـرف راحـة البـال مـن بعدهـا .. فـأي أحمـقٍ يتخـلّى عـن سـوطه، ويسـلمه لسـجينه بطـوع إرادتـه!!

قاطـع أفـكاره صـوت وتـر يهتـز مـن بعيـد ثـم يصمـت ... التفـت حولـه فوجـد جمعًـا مـن النـاس ملتفـين حـول عـازف قـد توقفـت أصابعـه فـوق العـود وأخـذ يرنـو ببـصره إلى النهـر ... عـاود الرجـل تأملـه وشروده فسـمع أوتـار العـود تهتـز مـن جديـد ثـم يصمـت... أخـذ يحـرك رأسـه خفيـة كي يحـدّ السـمع وبـدأ العـازف يـضرب عـلى العـود مـن جديـد ولا يتوقـف تلـك المـرة ... ثـم سـمعه يطلـق (آهـة) طويلـة تحمـل شـجن وحنـين الدنيـا ... (آهـة) كانـت هـي النهايـة والبدايـة لـكل شيء...

انفجـر قلبـه بصولفيـج(*) هـادر كشـلال انفتحـت لـه ثغـرة فاندفـع لا يوقفـه شيء ... نـثر حروفـه الموسـيقية عـلى جنبـات روحـه المتعبـة... حـاول أن يخرسـه ... يكتمـه .. يـصرخ فيـه أن يعـود لكنـه كان اقـوى تلـك المـرة ... وكأنّ تلـك الكلمـة الضعيفـة أتـت بـكل شيء مـن الأعـماق ... وكأنهـا كانـت أقـوى مـن جدرانـه المحصنـة وعنـاده الطفـولي وخوفـه الغائـر ..
وكأنه هو نفسه من أرادها أن تخترقه وتخرج كل الحنين الرغبة

(*)الصولفيج: كلمة مشتقة من المفرد المركب (صول – فا) ويُقصد بها السلم الموسيقى.

في الحياة والسعادة والحب المدفون والأحلام المنسية وكل شيء صادق ومخلص من قلبه ...ظل الوتر كلما عزف واحدا بالخارج اهتز له الآلاف بالداخل ، فتسارعت الألحان التي هدها وأتعبها تلك السنين الطويلة في السجن والعذاب والصمت...

ذكّرته الأوتار بكل شيء ... بأحلامه وأولاده وأهله ومن كانوا يوما أغلى عنده من وقته وماله ... رأى أخاه يحتضنه بعدما أشبع أصحابه ضربا وركلا وفارقهم فقط لأنهم لمسوا وجه أخيه الصغير... رأى خطوات امرأته وهى تتوقف في لحظة مترددة قبل فراقه وكأنها تنتظر كلمة لم يقلها ... رأى صغيره وهو يعبث بأوتار العود وتلتمع عينيه وهو يسمع تجويف صوته مثلما أحبه أبيه ... أخذ يتذكر كل القلوب التي فتحها والتي حار في فهمها وأفزعه ظلامها... أدرك أنه في تلك الأيام التي لم يفهم فيها كان ينأى بقلبه عنهم فبات لا يعرف كيف يحادثها ولا يفهم ألغازها وأنها لم تكن مظلمة وكئيبة إلى هذا الحد ... بل هي معزوفات أخرى في حاجة أن تجد من يشاطرها ويدندن معها ويخبرها كم أن الكون ازداد جمالا ووجدا بها ...

ظل العود يعزف وظل القلب ينتفض وظل هو متسمرًا في مكانه.. وبينما كان كذلك أخذ يبحث عن شيءٍ ما... فعلٍ ما... أي دليلٍ يؤكد أنه عاد للحياة من جديد ... ربما كان ذلك اختلاج قلبٍ في لحظة ضعفٍ فحسب... ربما سيعود ويغلق عليه بمجرد أن تمضى الألحان وتسكن .. أراد أن يثبت له كم هو

نـادم وأنـه لـن يحبسـه ثانيـةً ولـن يمنعـه عـن الحـب والشـمس والحيـاة بعـد الآن ...أراد أن يكلِّـم قلبـه تلـك المـرة ويوجـد لغـةً غـير الصمـت بينهـما ...

وبينـما هـو يفكـر في كيفيـة ذلـك وجـد قطـرات دمـوع تنسـاب عـلى غفلـةٍ منـه كي توقّـع وتختـم عـلى صـدق كل كلمـةٍ أقسـم بهـا إلى قلبـه ..

الجميلتان

نظرت إليه بمقت والدم يتساقط غزيرًا من قلبها.. ثم أودعت الدنيا آهة أخيرة قبل أن تستسلم للموت»

أنهيتُ تلك الرواية أخيرا بعدما أجهدتني وامتصت من روحي وأعصابي كثيرًا...ظللت لمدة سنة أكتب وأمسح... أكتب وأمسح حتى مللت شكل الحروف والسطور وغادرتها ضجرا يوما ، وعدت إليها توسلا وندما أياما أخرى حتى تشفق علىَّ وتنتهى... كلما وضعت نقطة ازدادت عمقًا وتشابكا حتى تهتُ بين سطورها ، وأحتار قبطان قلمي كثيرًا بين ظلام أمواجها وترك التيار يسحبه حيث شاء ...

لكنى اليوم استيقظت من الفجر عازمة أن أصل المرفأ، وأُنهى تلك الرحلة في أي جزيرةٍ كانت ... فكان أن سكن الموج وطوع بسلاسة غريبة حتى اصطدمت السفينة بأرض النهاية، ونزل من عليها ملاحيها وطاقمها بالكامل تاركين جثة بطلتها التي أجهدتهم طوال الرحلة يُغرق دمها المكان ...

شعرتُ بارتياح كبير بعدما رست الرواية إلى شاطئها الأخير ... نظرت إليها برضا ثم أغلقت صفحاتها ... وبينما افعل ذلك خُيل إليّ أننى لمحت بريقا سريعا بداخلها، وكأن أحدا يرمقني بحدة، ففزعت، وفتحتها مرة اخرى فوجدت الكلمات ساكنة راضية بما آل إليه مصيرها ... وظننت إنني أتوهّم وقمت

وعيناي تحلمان بالنوم من قبل أن تمس رأسي الوسادة ...

غفوت لساعات لا أعلم مدّتها، ثم سمعت أثناء نومى صوتا خافتا بجواري فلم أهتز ، ولم يكن صوت مدفع بقادر أن يزيحني من فراشي قيد أنملة ... أكملت نومى لكنى سمعت الصوت عاليا واضحا تلك المرة وشعرت بأصابع تقبض على ذراعي بقسوة فالتفتُ ذعرا...

رأيتها تنزف أمامي في نفس الموضع الذى أغمدت السكين فيه منذ ساعات مضت ... كانت نظرات عينيها وحشية، وأمسكتني بكل ما أوتيت من قوة وصرخت : «لماذا قتلتنني أيتها الدموية الغبية ... لماذا !! »

كان صوت صراخها يقضى على أي شكٍ بداخلي أنى لازلت أعبث في دنيا الأحلام ... إنني مستيقظة بكامل وعيي وأواجه بطلة روايتي أمامي، وهى تمسكني بكل ما أوتيت من قوة وشباب مسعور للحياة، كي تحاسبني على ما أجرم قلمي فى حقها ...

لم أملك رفاهية التلعثم والذهول فقد كان وقوفها فوق رأسي وإحكامها على مخارج الهروب يُنبأ بمصير أسود إن لم أنطق بإجابة ترضيها وفورا ... قلت لها وانا أردّ صراخها : «كان لابد أن تنتهى هكذا ... لم يكن ثمة طريقة اخرى ... كنتِ حمقاء ساذجة تظنين أنك اذكى من أن يغدر بك أحدٌ ، ولم يكن هناك

ثمـنٌ تدفعينـه لتهـورك وغبـاءك غـير المـوت»

أمسـكت بي ودموعهـا تتسـاقط في يـأس : «لمَ أيتهـا البلهـاء ؟!!... مـن الـذى أخـبرك أننـي أريـد أيًـا مـن ذلـك ... كنـت أسـتطيع أن أتراجـع وأدقـق في التفاصيـل وأرى مـن يخدعنـي ... كنـت أسـتطيع أن أكون أكـثر ذكاء وحيطـة ... كان هنالـك فرصـة لكنـكِ أردت الراحـة لـكِ والعـذاب والمـوت لي ... أردتِ الحفـاظ عـلى أصابعـك الثمينـة مـن أن تُجهـد نفسـها بصفحـات زائـدة ترسـم لي نهايـة أقـل بشـاعة »

تأوهـتُ وأصابـع يدهـا تنغـرس في ذراعـي أكـثر : «لم يكـن يصلـح هـذا، صدّقينـي... كانـت كل الدلائـل تـؤول لنهايـة مأسـاوية أو لنقـل لم يحـو عقـلي حينهـا أفـكارًا لأبعـد مـن ذلـك »

انقضـت عـليّ وأخـذت تعتـصر جسـدي بحبـل سـميك وهـى تـصرخ باكيـة : «لـن أدفـع ثمـن تلاطـم أفـكارك وحيرتهـا ... إن كان هنـاك مـن يُكفـر ذنـب أحـد، فهـو نفسـه لا أحـد آخـر غـيره»

بعدمـا قيدتنـي، ألقـت بي أمامهـا في قسـوة وجلسـت أمامـي وجرحهـا يقطـر دمـا ... أشـفقت عليهـا فلـم أتخيـل أن تكـون بذلـك اليـأس ولا أن يحمـل قلبهـا تلـك الرغبـة المجنونـة لتكمـل روايـة قـد انتهـت أصـلا ...

جلسـنا أمـام بعضنـا أيامـا وليـالي، تتأملنـي وجرحهـا لا يتوقـف،

لكنها لا تموت ... فطالما صعدت لدنيا الأحياء فذلك معناه أن أراها بكامل عذابها، دون أن أملك حق علاجه او إنهائه... لكنى أنا من كنت حية وأجوع وأعطش وأتمنّى النوم ولا أطاَله وهى في كل ذلك تتلذذ بتعذيبي بآدميتي الحقيقية ... وعندما بلغ التعب منّي مداه راودتني فكرة للخلاص فقلت في همس متعب :

«جاءتني فكرة ... بما أنى لا أستطيع كتابة نهاية سعيدة إذعانًا لرغبتك ولن يسطر ضميري حرفا واحدا لا يرضاه لمجرد أن هناك من يريده كذلك ... فما رأيك أن ندع النهاية مفتوحة لمن يقرأها يرسمها كيفما يشاء!!!»

نظرت إليّ في قسوة ثم بتفكير، وبعد برهة قالت : « حسنا ... على الأقل خيال القارئ سيكون أكثر إنصافا وعدلا، وسيشعر بي على مرّ الرواية بدلا من أن يظل يكتب دون رحمة كي يصل لنهاية فلسفية تُرضى جنونه »

قلت لها والأمل يجتاح خلايا جسدي المنهك : «اتفقنا ... أطلقى سراحي الآن كي يتبقى لي حياة أستطيع أن أنقذك بها»

حلت وثاقي وجلست أنتفض تعبا ... وعجبت عندما وجدتها تأتيني بشطائر وكوب ساخن من القهوة المحوّجة بالقرفة... كانت تعاملني بودٍ زائد، وكأنها تريد نهاية مفتوحة تؤدى بخيال القارئ قسرًا إلى سعادتها وحياتها ... لكن هيهات !

كتبتُ الأسطر الأخيرة مرة أخرى، ونظرت إليها في ذلٍ تلك المرة ثم عرضتها عليها .. مالت برأسها قليلا ثم قالت برضا « لا بأس»... قلت لها : « سأسلمك تلك النهاية بشرط ... أن تأتى إليّ كل ليلة تروى لي ما كان من أمرك لأنه برحيلك بها ستذهبين إلى خيالات أخرى لا قدرة لي على الإبحار إليها»

قالت «اتفقنا» .. وأخذت الفصل الأخير ثم اختفت، ونُشرت الرواية بعدها بأيام وانتظرت مجيئها بفارغ الصبر ...

جاءت أوّل يوم وهى ممزّقة الوجه تماما ...كانت تبكى بحرقة وظلت تحكى عن طيبة قلبي ورقة مشاعري مقارنة بذلك القارئ الذى لم يكتفِ بجعلها مجنونة بل سلّط عليها اوغادًا من عصابة مجهولة، شوّهوا وجهها الجميل بالكامل ... أشفقت عليها وسألتها:« أتحبين أن أتراجع وأعيدك لسابق عهدك تموتين في هدوء ... يمكنني أن أتصرّف!!»... انتفضت قائمة وقالت :« بل سأكمل وعندي أمل ان أصير يوما ما أتمنّى » ... ثم ألقت علىَّ نظرة احتقار أخيرة قبل أن تذهب ...

لم أهتم فلازالت تعانى مأساة وجودها، وانتظرتها بلهفة الأيام التي تلتها ... يوما أتتني حزينة مجروحة القلب، لكن مكتملة الجوارح .. ثم أتتني بعدها سعيدة تحمل بين يديها طفلا جميل الملامح، وتخبرني عن زوجها المخلص وحياتها التي تبدّلت

منذ أن عرفته ... ثم عربات فارهة وصداقات جديدة وجوازات سفر لبلاد لم أسمع بها يوما ... لكن كل ذلك لا يُقارن بغرابة تلك المرة التي أتتني فيها ورأسها داخل خوذة زجاجية وقد جزت شعرها بالكامل وأخبرتني بصوت متضخم حائر أن قارئها قد ذهب بها إلى عالم فانتازي لم تملك بعد العقل والقدرة على فك طلاسمه ... كانت كل يوم تأتيني بشكل وحالة، لكن ما لاحظته من تشابه بينهم، أنها في كل مرة تثير العجب حقا وتصبح أكثر نضوجا وخيالا وجمالا ...

ظلت هكذا تزورني شهورًا ، ثم قررتُ أن نهايتها معي قد أزفت وحان بداية قصة أخرى ... هي الآن تستمع بحياتها وعالمها المتغيّر كل يوم وأنا وحدى هنا أغرق في بحر من السكون وأنتظر قدومها فحسب ... فلأبدأ عالما جديدا خاصا بي أراه بعقلي وخيالي تلك المرة ...

أتت ذلك اليوم ودخلت الباب في عفوية، فاصطدمت بفتاة أخرى تكبرها في السن .. كانت الفتاة جميلة، يغطى جسدها فستانٌ مخمليٌ أسود، ويحيط جيدها حزامٌ ماسي .. نظرت إليها في ذهول وسألتها : «من أنتِ!!» ... صعدتها الأخرى بنظرها وقالت في برود : «أنا فتاتها الجديدة ... أنتِ هي (نادية) التي طالما حدثتني عن رعونتك وجرأتك!!»

نظـرت (نادیـة) إلیهـا في احتقـارٍ مهـذبٍ یلیـق بفتـاةٍ خبرتهـا الخیـالات :« رعونتـي تلـك جعلتنـي أقـف أمامـك الآن بعدمـا كنـت عـلى وشـك المـوت تاركـة إیاهـا تعبـث بدُمـى ملونـة مثلـك»

ردت الأخـرى في كبریـاء :« راقبـى كلامـك ... أنـا (فایـزة) سـلیلة الحسـب بنـت (عـدلي) باشـا و(سـلمى) هانـم ... لقـد تربّیـت في القصـور وبـین الأغنیـاء لا متـشرّدة تتسـكع بـین الحـارات ویطاردهـا حفنـة أوغـاد»

أخـذت (نادیـة) تقلـد كلامهـا وهـى تمسـك بشـفتیها، وكأن أحـدا یحركهـما لتنطـق الـكلام، ثـم ضحكـت باسـتخفافٍ : «مـا أنـت سـوى دمیـة تعبـث بـكِ كیفـما تشـاء ... أخبرینـي ایـن وضعـت جثتـك تلـك المـرة ... أوراء سـور حدیقـة أم مذبوحـة في قبـو قـصرٍ أم تهویـن كالحجـر مـن فـوق جـسرٍ مـا !! »

ضحكـت (فایـزة) بصـوت عـالٍ :« یـا عزیـزتي أنـا الیـوم أرفـل مـع زوجـي وولـدي في بـلاد العشـب والسـحر التـي طالمـا حلمـتِ بهـا طـوال روایتـك، ولم تُرسـلك مـرة إلیهـا... أنـا الأن في نیوزلنـدا»

نظـرت إلیهـا في ذهـولٍ ثـم اسـتعادت رباطـة جأشـها، وقبـل أن تقذفهـا بكلمـةٍ اخـرى اقتحمـتُ حدیثهـما لأوقـف تلـك المهزلـة .. مهزلـة صراع بنـاتي أمـام عینـي ..

ركضا إليَّ فأحتضنتهما طويلا وتأبطتُ ذراعيهما إلى الشرفة .. كانتا تمقتان بعضهما حقا وكان لابد من إخبارهما بسرهما... نظرتُ إلى (نادية) بشعرها الثائر وعينيها التي تلونتا بعوالم شتى وجسدها الذى يحمل كل موضع منه علامة على مغامرة لا تشبه سابقتها .. وقلت: «أنتِ يا (نادية) دائما غامضة للقارئ... تثيرين حيرته وفضوله واستعداده أن يكمل الرواية معك ويدخل إلى دهاليز نفسه التي لا نهاية لغرابتها ... أنتِ رفيقته داخل عواطفه وأفكاره وربما اكتشف بك شيئا بداخله لم يدركه من قبل ... غموضك سحر ونهايتك المفتوحة لم تكن بسهلة علىَّ كما تظنين بل بذلت فيكِ جهدا أكبر كي أمهد للقارئ رحلة جديدة يبدأها بآخر نقطة في الرواية»...

نظرت إليَّ (فايزة) بعيونها العسلية الهادئة كمن يحمل رضا غريب بنهايته أيًا كانت ... كانت ملامحها صارمة وأنفها دقيق، مرفوع كنقطة تخبر صاحبها بتأفف أن قد حانت النهاية، فماذا تنتظر؟ ... وقلت : «جمالك يا (فايزة) واضح ... تعرفين إلى أين أنت ذاهبة وتملكين من النضج أن تكتملي وتثيري في نفس القارئ مشاعر متباينة كي يفكر فيما فات من حكايتك ... لأنه طالما لم تُوضع نقطة النهاية سيظل صاحبك يسرح ويذهب بالخيال بعيدا ... فوجود النقطة ضرورى في أحيانٍ كثيرة، كي تضع الدروس والعبر وتثير في النفس التفكّر فيما كان أكثر من الاستمتاع بالتحليق في خيالٍ لم يكن »

سألت (نادية) :« ومن تحبينها أكثر؟»
لم أتردد وقلت : «أنتما الاثنتان أحبكما بنفس الدرجة»
نظرت إليَّ في خبث وغيّرت السؤال : «أقصد من تظنين أن قارئها يحبّها أكثر!!»

فكرت قليلا ثم ألتفتُ إليهما :« عندما ينتهى من أيٍ منكما لن يأبه لنوع النهاية بقدر ما سيحب التي تتشبث بقلبه وعقله أكثر، وتظل ذكراها تراوده أينما ذهب ... التي تفهمه وتُترجم كلماتها ما يجول بخاطره أو يتمناه ولا يستطيع مصارحة نفسه ولا غيره به ... الأكثر جمالا منكما تلك التي تزرع بذرة صغيرة داخل قارئها وتتركه يرويها بما أحبها
وأقتنع بها حتى آخر العمر»..

خريف الحلم

سمعت صوت الباب ينغلق في عنف، فتدثرت في شالها جيدا وخرجت إلى الشرفة ترقب خطواته الغاضبة تفرّ منها... ظل يتحرك أمامها حتى استحال نقطة سوداء تبتلعها أضواء الشارع أو ربما لنقطة نور وحيدة أخذت تذوب في نفق حياتها المظلم...

أخذت تبحث في ذاكرتها جيدا ما الكلمة التي أغضبته هكذا وجعلته يزفر قاطعا الحوار في صرامة (لا فائدة !)... لقد رددت ذات الكلام الذى تؤكده له كل مرة عن مستقبله الضائع وخطواته الحائرة وأن يسعى لإيجاد عملٍ ما بدلا من تسكعه على المقاهي ومناقشته لبائسين مثله وكتابته لهراءٍ لا معنى له ... كان في البداية يحكى لها عن حلمه في كتابة الشعر وهى صامتة وترى عينيه تتنظر في شغفٍ إجابة لن تعطيها... وعندما بدأت تجيبه بما تود قوله فعلا تعالت أصواتهما وانكفأ الجيران يغلقون كل يوم نوافذهم وآذانهم على (لن تفهميني أبدًا) (أنت من لا يفهم الحياة مطلقا) وكلمات أخرى عن التفهمّ والعقل وسط اثنان يستخدمان في حوارهما كل شيء سواهما ...

ظلا هكذا طويلا ثم قرر الصمت فجأة ... مهما حاولت ومهما تكلمت لا يكاد يلتفت إليها وكأنّه ملَّ المعركة والبيت والحياة... وأصبحت تساؤلات (أين كنت؟) (إلى أين تذهب؟) تحيتا الصباح والمساء اللتان لم يعد يبالى بردهما ... وصار

البيت قفرا يحوى أما ثكلى على ابن لازال على قيد الحياة ...

حاولت أن تسيطر على أعصابها مرارا، وتصطنع الهدوء واللامبالاة وهى تضع أمامه ما يشتهى من الطعام ... لكنها عندما تلمح تغضن يده المجهدة التي يعلوها غبار ثلاثين عاما لا تتمالك أن تفكر بقلق في أيامه الباقية وحياته التي لم يعد فيها متسع لرفاهية التفكير في أحلامه العبثية، وهو بلا وظيفة ولا زوجة ولا ولد ... وكان يرد عليها بأن يزيد في الطعام ثم ينصب ظهره في اعتداد كرسالة تحمل بين سطورها شابا فتيا لازال يستطيع أن يحوى الدنيا بين ذراعيه.

ارتجفت لقرصة برد فأغلقت الشرفة واتجهت لغرفتها تسدل ستائرها وتغلق أنوارها ... جلست في الظلام وحاولت أن تُغلق عينيها لكن خوفها أن يداهمها الموت أثناء نومها جعلها تجفل في فزع وتكتم صرخات جسدها الذى يأن من التعب ... تعلم أنه سيأتي بعد ساعات ويصالحها وتعلم أنها ستسامح وتنسى لكنها في كل مرة تخشاه أكثر ... تخشى أن يغضب مرة فيرحل للأبد ... أن يحب ويتزوج فينساها وينسى دواءها وأنينها في الليل وسيره معها بين الحدائق عند الغروب وضحكه معها أثناء مسلسلها الذى تعلم أنه يمقته لكنه يفتعل الضحك كي يزيد سعادتها ... سينسى كل لحظة حلوة وسيركض هاربا من المرأة التي أحالت أيامه وشباب عمره لخريف بارد قبل الآوان...

ودت لـو تتغـير لأجلـه لكنهـا سريعـة النسـيان لوعودهـا وبالـذات لنفسـها ... ودت لـو يقـاوم يأسـها دون أن يتركهـا ... كـم تتمنّـى لـو تقـل أيامهـا في الحيـاة فـلا تضطـره أن يقاومهـا ويعـانى ويذهـب كي يعيـش حياتـه التـي لا تحتمـل سـماعها ولا يحـب هـو سـواها ... ثـم عندمـا راودتهـا الظنـون أنـه ربمـا كان يريـد ذلـك بالفعـل شـعرت بخنجـرٍ يذبـح قلبهـا ودمعـت عيناهـا وفكـرت كـم أن الحيـاة غـير عادلـة أن وهبـت حياتهـا لأحـدٍ ثـم إذا بـه يتمنّـى في سره موتهـا ... تركـت فراشـها كي تنفـض عنهـا تلـك الهواجـس التـي تـكاد تقتلهـا... تذكـرت شـيئا فقامـت إلى دولابهـا وبعـثرت محتوياتـه فوجـدت صنـدوق مطعـم بالعـاج مزخـرف بنقـوش طالمـا أحبّـت ملمسـها ... أمسـكت بـه وتنهـدت ثـم بـدأت تنقـب باطنـه..

وجـدت شريطـة ورديـة ابتاعتهـا ذات يـوم لصغيرتهـا المرتقبـة ... كانـت دومـا تحلـم ببنـات وبشـعر أشـقر طويـل تظـل تجـدل ضفائـره التـي حُرمـت منهـا منـذ الصغـر ... لكنهـا رغـم مـا انفقتـه في تلـك الأمـاني رُزقـت بشـعر أشـقر خشـن لصغـير يـصرخ كلـما مـس المشـط رأسـه ... أمسـكت خصـلات شـعرها الرماديـة وجمعتهـا فانتابهـا شـعور أفضـل ... اعتدلـت وأكملـت تنقيبهـا في حـماس فوجـدت لوحـة صغـيرة رسـمتها وهـى في عامهـا العـاشر ... تذكـر قصتهـا جيـدا ... كانـت تجلـس بـلا انتبـاه ترسـم قطـا صغـيرا يتسـلل بـين المقاعـد فأجفلـت عـلى شـهقة صديقتهـا مـن فـرط إعجابهـا باللوحـة ... كانـت المـرة الأولى التـي ينتبـه فيهـا أحـدٌ

لرسمها واحتفظت بتلك اللوحة التي تذكرها بقفزات سعادتها وهى عائدة لمنزلها في ذلك اليوم... وجدت شهادات متناثرة لمراكز علوم مختلفة ودت لو اتقنت أيا منها بالفعل لكن صورة ولدها التي أخذت تتأملها كانت نهاية تلك الأحلام.. أو ربما بداية لها ...

ظلت طوال شبابها تركض وراء أحلامٍ كثيرة لكنها عندما رأت خطوات ابنها الصغير تركت كل شيء وركضت خلفه ... خطواته الواثقة وتوقد عينيه وضحكته التي تشبهها جعلتها تؤمن أنها لم تخطئ الاختيار وأن يوما ما ستكبر تلك القطعة الصغيرة منها كي تكمل أحلامها ... لكن قطعة اللحم الطرية التشكل صارت تكبر وتأكل وتنام وتحلم... صار لها هواجسها وأفكارها وقوانين زمان ومكان فصلتها تماما عن جسدها كي تصبح حياة وحدها بالفعل... أخذت تفكر ما الذى تبقى لها على أية حال!! ... لقد أودعت ذلك الجزء منها آمالها وأحلامها وعندما انتفض وأعلن تمرده واستقلاله لم تعد تملك شيئا ذا معنى ... لقد تعلّمت أن الأحلام تُورّث ... هي تُورّث من بعدها أحلاما ثم يملك هو أحلاما أخرى يُورّثها لمن بعده حتى تصير سلسلة من الآمال والأوهام التي لم يحققها أحدٌ ... وظلت تنظر لصورة ابنها حيرى أتبكى عمرًا وحلما أُهدر في الخيال أم تفرح بحلم مكتملٍ نابضٍ بالحياة ..

أثناء ما كانت تعبث بمحتويات الصندوق وجدت صورة مدفونة تحت أكوامٍ من التراب ... مسحتها ثم عندما تبينت تفاصيلها ابتسمت تذكر أياما قديمة جمعتها بأحب الناس إلى قلبها ... لم تنتهى يوما حكايات صديقتها عن بلاد العالم التي ستذهب إليها وصنوف البشر الذين ستراهم في الصحراء والجزر وعند القطبين وترى عجيب عيشهم ... رأتها أخر مرة في فرحها يحملها زوجها إلى أول بلد بعيد تذهب إليه، ثم لم تسمع عنها شيئا بعدها ... قلبت الصورة فوجدت رقم بيت صديقتها القديم فقامت بتردد تدير أرقام الهاتف في محاولة تعرف أنها مستحيلة الحدوث لكنها ممكنة الحظ ... ولشد ما ذُهلت ثم تلعثمت ثم صرخت فرحة عندما سمعت صوتها... اتفقتا أن تتقابلا اليوم التالي في ساعة مبكرة من الصباح ... ونامت وهى قريرة العين تحلم بصديقة الحلم والطفولة وتلك التي سيعود معها ربيع الأيام ...

ذهبت إلى حيث المطعم المتفق عليه ... كرسي أمامها يتحرك في بطءٍ يحمل جسدا واهنا وشالا أسودا وعيونا يابسة خلف نظارة ذهبية ... وجدتها بدلا من أن تحدثها عن ذكريات رحلاتها إلى فرنسا وروما وسويسرا تحدثها عن رحلاتها إلى طبيب الرمد والضغط والسكر ... لم تضحك سوى عندما أخبرتها سخرية بمحاولات ابنها البائسة لإصلاح ذات بينها وبين زوجته المتنمرة على بقائها معهم في ذات البيت ... ثم عادت تتجهم ورياح خريف العمر تهب من فمها بين كلمة واخرى وتزيدها

بـردا ووحشـة ... لم تُطـل الحديـث وفارقتهـا عـلى وعـدٍ بلقـاءٍ بعيـد... سـألتها صديقتهـا إن كانـت تحـب أن تصحبهـا .. فتلفتـت حولهـا حـيرى ثـم تلعثمـت بكلـمات عـن مشـوارٍ مهـم لم يتعـدَ مقعـد حديقـة جلسـت عليـه يحمـل عنهـا جسـدها الـذى ازداد وهنـا ويأسـا ...

أخـذت تفكـر في سـنوات عمرهـا الباقيـة... كـم هـي ثقيلـة مـاذا سـتفعل بهـا وهـى التـي لم تعـد تحتمـل ثقـل جسـدها ورأسـها وهمهـا فكيـف بـوزن الأيـام وطولهـا ... كـم تتمنـى أن تُغمـض عينيهـا في غفلـة مـن نفسـها فتمـوت بـلا ألم ... بـلا ذنـب انتحـار ... بـلا سـبب يظـل ابنهـا يشـقى عمـره بسـببه... لكـن كلمـة الحيـاة والمـوت ليسـت بأمرهـا وهـى عـلى كل ذلـك مؤمنـة بربهـا وبأنهـا لسـبب مـا تجهلـه لازالـت هنـا ...

لفـت نظرهـا عصفـورا صغـيرا يتقافـز أمامهـا ... كانـت هنالـك عصفـورة أخـرى يركـض وراءهـا ثـم يتوقفان قليـلا ويعـاودان الركض ثـم يطـيران والعصفـور لا يتوقـف عـن اللحـاق بعصفورتـه في إصرارٍ عجيـب ... تمثـل أمامهـا في لحظـة شـعور مـا ... أن يتمثـل أمامـك صـورة أو كلـمات لهـو شيء عـادى مـن السـهل نقـل تفاصيلـه... لكـن أن يتمثـل في قلبـك شـعورا تريـد ان تحكيـه لهـو العجيـب حقـا ... أخـذت تتلفـت حولهـا بحثـا عـن ولدهـا أو صاحبتهـا أو أي كائـن حـي تحـكى لـه لكنهـا لم تجـد سـوى سـكون الريـاح ... لكـن ذلـك الشـعور ظـل يتمكـن منهـا... يجعلهـا تتمنـى لـو ذهبـت

وأتت بـــ.....

قفـزت وعظـام جسـدها تـأن لكنهـا لم تأبـه ... عـادت بفرشـاة رسـم جديـدة وألـوان مائيـة وصفحـة بيضـاء ... أخـذت تقيـم اللوحـة وتفتـح لونـا تلـو الآخـر... ظلـت ترسـم وتغنّـي وتحـكى للكـون عـما تشـعر وتلـون بيـاض الصفحـة بألـوان قلبهـا.... شـعرت بالريـاح تصفـر سـعادة برسـمها ... رأت في تجاعيـد أصابعهـا خطوطـا سـاحرة لم تألفهـا مـن قبـل... رأت شـبابها في مـرآة لوحتهـا وضحكـة ولدهـا وحبهـا للأيـام والحيـاة ...

أدركت أنه ربما هناك خريف عمر وخريف جسد ...
لكنه ما من هناك أبدًا خريف أحلام ...

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾

سورة النجم

الثقبُ الأحمر

ظل يرمق قطعة الصخر القابعة أمامه في صمت ويومئ برأسه بين الحين والآخر ثم يهزّها طردا لفكرة فاشلة مثل سابقتها ... أنهكه التفكير في صنع ذلك التمثال .. من أين سيبدأ ... ما الفكرة التي سيبنى عليها .. ما الرمز الذى سيتفنن في تشكيله ... وضايقه أن الوقت قليل للغاية ... قليل لدرجة أنه شّك في لحاقه بمناسبة مدينتهم الوطنية التي سينحت التمثال خصيصا من أجلها ... لازال يذكر ليلة البارحة حينما زاره مسئولون من القصر يرتدون ملابسا وأحذية سوداء ونظارات تماثلها قتامة وفزعا في النفوس ... دخلوا بيته في لياقة باعتباره (نحات) المدينة، ثم في خلال دقائق قليلة كان مسلوب الرأي أمام مهلة أسبوع لا نقاش فيها للإنتهاء منه ...

من حسن حظه أن منحته يقع أمام موقع الذكرى الوطنية ومكان الاحتفال... فمكّنه ذلك من أن ينظر وقتما يحب ويتأمل كينونات المكان علّه يبعث في مخيلته وحيا ما ... ألقى نظرة أخيرة على الصخرة ثم تنهد وأطفأ سيجارة لازالت في بدايتها وارتعشت يده وهى تمسك بأخرى ترمق قرينتها المطفية في توتر إشفاقا من جنون صاحبها ...

بالقرب من ذات المكان ... كان هناك (رجل) يجرى لاهثا ويتلفت ورائه في ذعر ثم يطلق ساقيه للريح أكثر ... كان الدم ينزف منه في غزارة وأطرافه ترتعد من البرد والخوف...

بعدما اطمأن إلى بُعد مطارديه نزل على ركبتيه وأخذ يلتقط أنفاسه وهو ينظر للأرض في يأسٍ ... كان الموت قريبا تلك المرة ... لم يتخيل أن نهايته ستكون جثة هامدة ملقاة على قارعة الطريق تموء حولها القطط وتنهشها أنظار أهل مدينته المذعورة من خلف نوافذهم المغلقة ... لم يحاول أحدٌ منهم أن ينقذه رغم كونه ضيفا ثقيلا عليهم كل يوم ... كان يزورهم ويمكث أمام أبوابهم بالساعات، يُثقل أسماعهم بكلام عن الحرية والكرامة وهراء من ذلك القبيل ... كلما علا صوته ألتفتوا حولهم في ذعر وتوسلوا إليه أن يرحل قبل أن يدق أسماعهم دبيب منظم يعرفونه جيدا ... إنهم حراس الحاكم الأوفياء يتشممون المكان ويرمقون النوافذ المفتوحة سهوا كي يركض إليها أصحابها ويسدلون ستائرها السوداء ... لقد نجح الحاكم في جعلهم يرتعدون داخل بيوتهم وأسرّتهم وقلوبهم ... لم يعد أحدٌ في المدينة يتكلم فكان صوت (الرجل) هادرا مفزعا يجذب إليه السمع والبصر لكنه سمع وبصر الحراس فقط دون أهل مدينته ... لم ينجح صوته أن يقلب التراب عليهم في قبورهم ويوقظ الموتى بداخلهم ... كان الأمل في قلوبهم أشد موتا من الموت نفسه فأستشاط غضبا تلك الليلة وأخذ يعوى في وجوههم دونما سيطرة على نفسه ... وأثناء صراخه لمح شبح حراس الحاكم في عيون الناس التي أتسعت فزعا في صمت وهم يتسلّلون خلفه ... حينها أدرك الفخ فركض بأقصى ما تتحمله قدماه دون أن ينظر وراءه... واستحال لون السماء إلى ألعاب نارية صوتها مبهر لكنها تلك المرة تُدمى وتقتل ...

أخذ يجرى بجرحه الغائر فوجد أمامه مبنى رماديا مُختبِئًا وراء غابة كثيفة من شجر البيلسان، فدخله ... تساقط الدم على أرضية المبنى الرخام فصعد مسرعا لا يدرى لأين، لكن من يهرب من الجحيم يرى في أي خندق ضائع جنة المأوى... وجد أمامه بابا مواربا فدخل إلى غرفة جدرانها عارية قد نساها أصحابها مع الزمن ... أغلق الباب وانهار في سكون يبكى ألمه وذله وعمره الضائع على مدينة أغمدت يأسها وخنوعها في جرحه للأبد ...

عاد (النحات) لمنزله وهو يحمل أدوات عمله، ويعد الباقي من مصروف بيته الذى هدَّه التمثال وأتى على آخره من قبل أن يضرب فيه معولا ... وبينما يفتح الباب لمح خطا أحمر على أرضية المبنى الرخام فتراجع فزعا ... لكنه تذكر شيئا فلمس حقيبته الخلفية ونظر ليده وتنهد في ضيق ... ثم بدأ ينزل درجات السلم ثانية ليأتي بلونٍ أحمر آخر غير الذى انسكبت دماؤه على أرض المبنى ...

استيقظ (الرجل) الجريح على خيوط شمس دخلت عينيه خلسة من النافذة ... كان قد جمع أوراقا وجدها وجفف بها جرحه ... ثم أطبق برباطٍ ممزقٍ على الجرح فأعترض وتأوّه قليلا ثم سكن بعدما أحكم قبضته عليه ... قام ينظر من النافذة ويرسل بصره إلى المدى البعيد أمامه ... بعد ثلاثة أيامٍ ستجتمع في تلك الساحة رؤوس تقاسى الحر وعذاب الوقوف

كي تهتف بحياة من قتل آدميتها ... ثلاثة أيامٍ وستشهد تلك الساحة مسرحية هزلية لا يتوقف متفرجيها عن التصفيق والصياح للإعادة، بينما بنادق المخرج والمنتج وكومبارس النظام تهددهم من وراء ظهورهم ... لكنه الآن خارج المسرح ينظر إلي أطلاله من خلف الأشجار ويوشك أن يضغط على زناد يفجر الذل الكامن بداخله.

أتى مسؤولو القصر للـ(نحات) يسألونه عما تم من العمل ... انتفض وزعق وصال وجال ورغم ذلك أخبروه أن أمامك ثلاثة أيام فقط وينتهى ذلك العبث ... وعندما رأوا إصراره أرخوا قليلا وأخبروه أن جمهورًا غفيرا في انتظاره وإلا كان الحفل بمنصته بمناسبته بلا معنى ... ذهب بهم إلى التمثال وأرآهم قدمه وصدره وذراعيه وطمأنهم على انتهائه منه فيما عدا رأس التمثال، لأن بها الرمز ولابد أن يأخذ وقته في التكوين والإبداع ... فتركوه وهو يزفر في توتر واتجه إلى نافذته يرمق الساحة الكبيرة حيث سيجتمع أهل المدينة في اليوم الموعود ليشهدوا حفل تكريم أو تأبين تمثاله المبتور ...

أتى اليوم ... كان الجو صحوا والشمس تتألق فوق رؤوس الملايين... أطل (الرجل) من نافذة غرفته على الساحة ... لم يظن أن أهل مدينته بتلك الكثرة وكأنهم طوفان بشرى قد استسلم لقبضة الرياح ... انتظر طويلا حتى رأى الحاكم يخطرُ في مشيته نحو المنصة وصيحات الناس تعلو حتى لتكاد تشق جدران القصر

وكأنها تتمنى أن تنهدم من تلقاء نفسها ... نظر (الرجل) إليهم اولا وثانيًا ثم أطال النظر ... تمنى من صميم قلبه ألا يخذلوه تلك المرة ... أن يستغلوا الفرصة ويستردوا حياتهم وآدميتهم ... ربما توقظ تلك الحديدة الصغيرة في قلوبهم شيئا ... ربما كان كل ما ينتظرونه مجرد طلقة ...

أطلقها بالفعل تجاه هدفها فأصابت ... انفجر المذياع الذى كان يخطب به الحاكم فأخرس خطبته البلهاء أمام ذهول الناس... ظل يسب ويلعن في صراخ لحراسه الذين شلّتهم المفاجأة للحظة ثم كشروا عن أنيابهم... وقف (الرجل) في سكون يترقب في أملٍ مكتوم ما سيفعله قومه، فوجد جرذانا تجرى من كل مكان مذعورة تتخبط في بعضها وتدهس بعضها، هروبا من موتٍ محقق على أيدى الحراس وأصبح صوت الرصاص هو سيد المكان ... نظر (الرجل) إلى قومه في صدمة ... «لا ليس فيهم أمل ... مهما فعلت ومهما حاربت ليس من ثمة أمل... إنهم ميتون وأنا ميت كذلك ... ظللت طوال عمرى أُكذِّب حقيقة موتى وخُدعت بحرارة أنفاسي وحركة يدى ونبض قلبي ... ظننت أنهم فاصل بين الأحياء والأموات وعليه قاومت من يكبلني ويحاول دفني في مقبرته ... لكنى أضعف من أن اقاوم قيود كفني التي شدها وأحكمها قومي...كل ذلك هر... !! »

وأتمت رصاصة غادرة حديثه فأحدثت في جمجمته ثقبا أحمر... وبينما يرتمى على أرض غرفته الباردة ، كان وجهه يتطلع الى

الشـمس بجسـدٍ هامـدٍ وعـينٍ كانـت تتمنّـى الحيـاة ...

زفـر (النحـات) طويـلا بعدمـا وضـع أخـر لمسـة في تمثالـه ... لقـد انتهـى أخـيرا ولم يعـد ثمـة قطعـة ناقصـة ... أتى مسـؤولو القـصر ونظـروا إليـه وابتسـموا ابتسـامة رضـا أخـيرة ثـم غطّـوه وحملـوه إلى حيـث ألتـف أهـل المدينـة...

وقـف التمثـال تحـت كفنـه الأبيـض صامتـا شـامخا أمـام الجميـع... بـدأ حاكـم المدينـة بالحديـث في حـرارة، و بعدمـا أنهـى خطبتـه أشـار الى التمثـال ثـم رفـع السـتار ... هاجـت النـاس في صرخـات حـب وإعجـاب ... كان التمثـال يتألـق أمامهـم بقدمـه وصـدره وذراعيـه ورأسـه التـي تحـوى ثقبـا أحمـر واسـعا...

ثقبـا حينـما اغتـال صاحبـه منـذ عـشر سـنوات مضـت وتألقـت منـه دمـاء المـوت ...
حرّر في قلوب أطفال وشباب تلك المدينة الأمل والحياة...

" نحـن نكـبر أمـام العـالم، كي يكـون لنـا الحـق أن نضعـف أمـام شـخص واحـد ... المأسـاة كوننـا كلـما كبرنـا، صغـر احتـمال عثورنـا عـلى شـخص نقبـل بـه شـاهداً عـلى ضعفنـا الإنسـاني"

أحلام مستغانمي

ينابيع الحجر

ذات يـوم وهـى صغـيرة دفعهـا أحدهـم فوقعـت عـلى الأرض وبـدأ صـاروخ مـن الألم يـسرى في ركبتهـا، فلـم تسـتطع أن تطلقـه سـوى عـلى شـكل صرخـة باكيـة أفزعـت أمهـا ... ظلـت تتشـنج ودموعهـا تبلـل حضـن أمهـا فتزيدهـا ضـما إليهـا، وتلثـم رأسـها في حنـو أكـثر... كانـت الدمـوع تمثـل لهـا الأمـان والحـب فلـم تـتردد في إظهارهـا في أي وقـت ، ولم تجـرؤ يومـا أن تسـدّ منابعهـا أو توفّـر مخزونـا منهـا ... ودت كثـيرًا لـو تعـرف مـن أيـن تتفجـر وعجبـت أن يكـون السـبب عصفـور ميـت صـدم عينيهـا، أو عجـوز بائـس يتـألم وحدتـه، أو أمنيـة يتمناهـا القلـب حقـا... كانـت تظـن أن هنالـك ينبوعـا عظيـمًا هائـلا تـأتى منـه ومـا تلـك الأسـباب إلا جـداول رقيقـة تسـمح بمـرور الدمـوع عبرهـا... لكنهـا لم تهتـم كثـيرًا بكشـف سرهـا طالمـا تُمكـن قلبهـا أن يزفـر مـا يحويـه مـن آلامٍ ورحمـةٍ وأحـلامٍ ...

ظلـت لغـة الدمـوع هـي وسـيلتها للتعبـير ومخرجهـا الآمـن لـكل مـا يجـول بداخلهـا دون كـذبٍ أو تزييـف... حتـى آتاهـا ذات مـرة مـن ينظـر لدموعهـا في اسـتخفاف ثـم بقسـوة ويهـدئ مـن روعهـا في شـفقةٍ متنكـرة ... ثـم إذا بـه بعدهـا بأيـام يذكرهـا بمـا كان مـن ضعفهـا واحتياجهـا وركوعهـا تحـت قدميـه نـداءا لـه ...نظـرت إليـه بذهـول وهـى تـرى حقيقتـه التـي ظـل سـنوات يخفيهـا تحـت طمـى طيّـب فأزاحتـه أنهـار عينيهـا ليكشـف عـن أكـثر الكائنـات تقـززا ونذالـة ... لأول مـرة كرهـت تلـك الأنهـار ... لأول مـرة تمنـت

لـو كان لهـا التحكـم فيهـا فذهبـت بداخلهـا تبحـث عـن منابعهـا ... وجدتهـا في مجاهـل عميقـة فنظـرت إليهـا في مقـت ... رأت شـطآنها ضعيفـة رغـم قـوة جريانهـا ... وجدتهـا شـفافة رغـم تلـون مـن حولهـا ... رأت أناسـا ينظـرون إليهـا مـن عـلٍ باسـتخفاف وامتهـان فأمسـكت منديـلا كبـيرا وأخفتهـا بـه وقـررت حبسـها عـن أعـين النـاس في دنيـا (البقـاء للأقـوى) ... ومـا كان منهـا سـوى أن نظـرت لغريمهـا في لامبـالاة قاسـية وأخبرتـه أنهـا كانـت مجهـدة ذلـك اليـوم كباقـي البـشر، ولم يكـن ندائهـا سـوى لخلايـا جسـدها المنهكـة كي ترتخـى وتسـتريح وليـس لـه هـو ...ثـم رمقتـه بتحـدٍ فتراجـع خطوة ودخلـت لأول مـرة معركـة حقيقيـة ليـس لدموعهـا دخـلٌ فيهـا ... معركـة مـع ضعفهـا الـذى أضحـى منـذ اليـوم عـدوًا لهـا ...

مضـت في الحيـاة، تـارة تغالـب ضعفهـا وتقاومـه وتدفنـه تحـت قدميهـا والنـاس مـن حولهـا مذهولـون مـن تغيُّرهـا، وبداخلهـم شـفقةٌ ممزوجـة ببعـدٍ تدريجـي عـن نَمـرةٍ جريحـةٍ تنهـش مـن يقـرِّب منهـا ... وتـارة يغالبهـا في ظـلام الليـل حينـما تعجـز عـن رؤيـة الكائنـات وتفاصيـل المـكان وحتـى تفاصيـل وجههـا، فتسـمح لينابيـع الدمـوع أن تنهمـر وتصـب في وسـادةٍ بيضـاء لم يمسـها بعـد زيـف الحيـاة...

أحيانـا تـأتى صديقـة تهمـس لهـا أن حلهـا الوحيـد في مشـكلة مـا بضـع قطـرات مـن الينبـوع الـذى تمتلـك بنـات حـواء جالونـات لا تنتهـى منـه تذيـب الحجـر ... فيراودهـا التفكـير في سـهولة الوسـيلة

وإجهادها المتواصل في إيجاد حلا لرؤسائها بلا أملٍ ... ثم تنفضُ عن خاطرها تلك الأفكار وتأبى عزة نفسها إلا أن تجتهد وتسلك طرقا مشروعة للوصول لا أن تهرب إلى تلال ينابيعها لتأتى بدلو غالٍ لا يقدر على دفع ثمنه شيئا من محقرات الحياة ...

أحبت وهجرت وصادقت وخاصمت ومكثت وسافرت ... كل ذلك نكت جروحا بقلبها، لكنها ظلت تقنع نفسها أن هكذا الأنسان يتألم ودوما سيفعل ... وكلما آلمها جرح بشدة وظنت أن لحظة أخرى وينفجر ليقضى عليها، تأوهّت في صمت وأغمضت عينيها وهى موقنة أنه في تلك اللحظة بالذات يندمل ويلتئم، وما عليها سوى أن تعبر شهقاته الأخيرة في شجاعة ...

لكن يوما طرق قلبها زائرٌ.. فتحت الباب في قسوة فوجدت أمامها وجها صادقا ينظر إلي جدران قلبها الباردة ويخبرها أنه يودّ الدخول وسيتكفل بالعلاج ... كادت أن تغلق الباب في وجهه لكنه أخرج من جيبه بذرة حب وأعطاها إليها دون مقابل ... دخل إلى القلب فوضع شمسا صغيرة وزرع تحتها ورودا وياسمين وتبدلت حرارة الجدران فبعثت الدفء في المكان... لم تعد عيناها تلتمع حزنا في غفلة من الناس، بل تتوهج بداخلها الشمس سعادة وحياة...

عاشا معا فترة من الزمن ثم أتت عليهما سنين عجافٌ ... كانت تخشى ما لم يفصح عنه بلسانه لكنها لم تتكلم وتركت

الأيـام تتـوالى دون شـكوى علّـه يتبـدل الحـال ... لكنـه لم ينتظـر وصارحهـا يومـا أنـه يـود السـفر كي يتحصـل عـلى قوتِهـما معـا... قالـت «أذهـبُ معـك» فقـال «لا» بـكل صرامـة دون أن يوضّـح الأسـباب ... لكنهـا كانـت تعلـم مـا يـدور بخلـده، وأنـه لم يـرد أن يحمـل أحبائـه في سـفينة الغربـة كي يقاسـوا رحلـة لا يعلـم نهايتهـا وذنبهـم الوحيـد أنـه القبطـان ... لم يـرد لأي مـن ذلـك أن يحـدث وقـرر أن يخـوض البحـر ويتحمـل وحـده التبعـات ...

رجتـه كثـيرًا أن ترافقـه وأخبرتـه أنهـا تجيـد فنـون التحمـل بأصنافهـا لكنـه ازداد رفضـا ... شـعرت بأميـال مـن التـلال والبحـار والظـلام تفـرق بينهـما... بـدأت الشـمس بداخلهـا تنـزوي وتخلّـف في قلبهـا بـردًا وخوفًـا مـن مجهـول تشـعر بـه ولا تـراه ... رافقتـه إلى الباخـرة إلى أن انتهـى مـن إجـراءات السـفر وأوشـك عـلى الذهـاب ...

نظـرت إليـه وتذكـرت حضـن أمهـا أيـام الصغـر ... ودت لـو جـرت إليـه تبـكى بـكاء لا تسـعه الدنيـا، وتخـبره بمـا يختزنـه قلبهـا مـن حـب وتشـبث بـه كي لا يتركهـا أبـدًا... ودت لـو دفنـت رأسـها المتعبـة عـلى كتفـه وتفجّـرت ينابيـع دموعهـا منـذ أن وُلـدت لتصب بداخلـه، وتودعـه أحلامهـا التـي اختُزلـت فيـه وخوفهـا الـذى اختُـزل في ذهابـه ... أنهـار العـالم تقـف جافـة مقارنـة بالسـيل الـذى يجـرى بداخلهـا ... سـيل مـن الحـب والألم والرغبـة في الاندفـاع دونمـا توقـف ...

لكـن في تلـك اللحظـة بـدا لهـا وجـه غريمهـا مـن بعيـدٍ وهـو يضحـك ... يضحـك عـلى أنهارهـا البائسـة ... نظـرت في عينـي حبيبهـا فوجدتهـا تلتمـع ذكاءا ... لقـد ملكتـه باندفاعهـا وحماسـها وشـجاعة ضحكتهـا اللامباليـة ... خافـت أن يـرى تألـق دمـوع الضعـف في عينيهـا فيزهـد فيهـا ... أن يتذكـر أخـر وجـهٍ لهـا بعـد سـفره فيضحـك كـما ضحـك غريمهـا مـن قبـل، ويزيـد في التنكيـل بهـا والتلـذذ بإذلالهـا بـل وربمـا يذهـب لمـن تذيقـه عـذاب الحـب لا الشـفقة ... تضاربـت أنهـار الدمـوع حـيرة بداخلهـا، وأوقـف تدفقهـا الشـك والخـوف الـذى لم يسـتطع التيـار أن يجرفهـما ويلقيهـما بعيـدا رغـم مـرور الأيـام وتغـيّر الوجـوه ...

فانسلّت من بين يديه في برود ، وودّعته بقلب ينزف ...
لكن بدموعٍ من حجر...

((أحيانًـا يكـون الحـل كلـه أن تتفقـد نظارتـك الضائعـة فـوق عينيـك))

الملحمة

تناثرت حوله فرشات الرسم فأخذ يجمعها وهو يدمدم في غضبٍ ...

نظر إليه (باسط) في سخرية ... طالما ملأ مرسمه بتلك الفوضى في كل مكان ... لوحات أكبر من حيّز المرسم نفسه .. فرشا وألوانا لم يره يفتحها من قبل، حتى أنه لمح ذات مرة لونا غريبا يجمع ما بين الرمادي والأخضر، فحاول أن يستخدمه فأنتزعه (عنقود) منه وزجره بأن تلك الأشياء تخصّ الفنانين المترفين، ولا يجوز للصعاليك أمثاله أن يحلموا بمثلها يوما.

كانا رسامين جمعتهما الصدفة في ذات المرسم ... ورث (عنقود) عن أبيه ثروة صغيرة سرعان ما أنفقها في زياراته لبلدان بعيدة لم يطأها أحدٌ من أقرانه .. فكان في سفره وخياله الذى اتسع بطبيعة كل بلدٍ زارها وحضارتها وعادات شعوبها، ما أكسبه وجهة نظر ميّزته في مجال الرسم ... فأضحى يرسم لوحات فنية تفاصيلها آية في الجمال وصار اسمه معروفا في أوساط الفن كواحد ممن ينقل حضارات العالم لمعجبيه بكل دقة ...

ذات يوم كان (عنقود) يتريض في حديقة المدينة، يبحث عن فكرة، فرأى تجمّع الناس حول رسّام أمام البحيرة ... دفعه الفضول والانجذاب النفسي لكل ما يخصّ الفن، فذهب وحشر نفسه وسط جموع الناس بصعوبة ... وجد (باسط) جالسا

أمـام البحـيرة يرسـم لوحـة لقـارب صغـير يحمـل صيـادًا بأسرتـه وهـم يجدلـون شـباك الصيـد، فنطـق رسـمه جـمالا توقفـت لأجلـه العيـون والأقـدام ...أخـذ (عنقـود) يتأمـل اللوحـة وشـعر بـأن هنـاك أوتـارًا تعـزف، وصوتـا يلحّـن، لا مجـرد ألـوان تطيـش هنا وهنـاك ... سـأله عـن اسـمه فأخـبره بأنـه (باسـط) و في بضعـة كلـمات قليلـة كانـت لوحاتـه وفرشـاته في مرسـم (عنقـود) تسـتقر بـلا اتفـاق.

لم يـدر (عنقـود) مـاذا يريـد حقـا ... أتـراه يريـد أن يتعلّـم منـه وهـو الفنـان العظيـم الـذى تُوضـع أمامـه الأمـوال والسـبائك مـن قبـل أن يخـطّ نقطـة ... أم عـلى العكـس يريـد أن يقـارن رسـمه برسـم ذلـك الصعلـوك ليـزداد قناعـة بسـحره ويوقـن أن تجمهـر النـاس لا يكـون عـادة لأجـل جـمال الـشيء بـل لغرابتـه عـن وتـيرة حياتهـم المملّـة في كثـير مـن الأحيـان... أم أنـه لا هـذا ولا ذاك، ولا دخـل للمشـاعر الإنسـانية وسـموها أو خبثهـا في الموضـوع، بـل هـي مجـرد مشـاركة وجدانيـة وانضـمام زميـل آخـر لمرسـمه، وهـو الـذى عـانى طويـلا رغـم شـهرته مـن الوحـدة ووحشـة المـكان ...

لم يلتفـت لذلـك عـلى أيـة حـال، وظـلا يتشـاطران المرسـم والألـوان حتـى أتضـح مـع الأيـام اختلافهـما في الطريقـة والأفـكار ... فبينـما كان (باسـط) يرسـم لوحـة لـوردة بنفسـجية تسـكن إحـدى الأشـجار أمـام النافـذة، فـزع لصـوت (عنقـود) وهـو يـصرخ فيـه «مـا هـذا الهـراء!!» ... أخـبره (باسـط) أنـه يؤمـن بـأن الاشـياء الصغـيرة هـي التـي تجعـل العـين تتأمـل وتُمكـن النفـس أن تعـي تفاصيـل

الصورة القليلة وتمتصها بداخلها جيدا ... فنظر (عنقود) إليه في استخفاف وأتى له بلوحة قديمة تحوى حديقة من شتى ألوان الورد تتوسطها نافورة ذهبية وسأله : «أترى كم الألوان التي تم دمجها في لوحة واحدة والتي تُظهر تناسق وتباين سحر الطبيعة ... كيف امتزج اللون الأخضر مع مئات الألوان من الورد في صورة تبتسم لها العين وتحفظها في ذاكرةٍ لا تُنسى!!» تأملها (باسط) في تقديرٍ وإعجابٍ ثم قال : «نعم ... لكنها في النهاية صورة لورد ... كل ما أردت أن تُظهره وتُريه للناس أنك رسمت وردًا... سواء كانت واحدة أو أكثر فقد وصل لمن يراها المعنى في جمالها ودقة خلقها وبعثها في النفس الجمال والبهجة».

زفر (عنقود) وأخبره أننا لن نتفق وتركه وقد بدأ شرخ غائر بينهما منذ أن وُضعت الوردة وحديقة الورد على كفتى ميزان... وانفصلا بأدواتهما وإن كانت طبيعة (عنقود) وذوقه كفنان لم يمكّناه من أن يجرؤ ويطلب منه مغادرة المكان. ولا (باسط) بسلامه الداخلي رأى في خلاف بسيط كهذا ما يدعو لحد الخصام والفراق... فأكملا عملهما متباعدين وإن انتاب صمتهما بضع ملاحظات طريفة حينا، وسمجة أحيانًا حينما يقع نظر أحدهما على رسم الآخر.

ذات يـوم، دقّ جـرس البـاب طويـلا فاستسـلم (باسـط) وقـام لفتحـه ... دخلـت فتـاة جميلـة في الثلاثينـات مـن عمرهـا يبـدو عـلى هيئتها أنها مـن جهـة ثقافيـة مـا ... جلسـت تنظـر للأثنـين في تـوءدة، ثـم اخـذت تتحـدث في رتابـة عـن يـوم تاريخـي لبلادهـم تذكرتـه اقـلام المؤرخـين، ونسـته فرشـاة الفنانـين، لـذا بعثـوا بهـا إليهـما كي يخلـدوا ذكـراه ... كان (عنقـود) و(باسـط) يعلـمان تلـك الذكـرى جيـدا .. يـوم أن هـزم جيـش بلادهـم جحافـل إمبراطوريـة في أقـاصي الأرض، وعـاد يحتفـى ويشـعل الشـماريخ لذلـك ليـالي وأشـهرًا... لم يشـهد تاريخهـم مثـل ذلـك النـصر الـذى أقتلـع شـوكة عـدو عـاث في الأرض فسـادًا وظلـمًا طـوال مائتـي عـام أو يزيـد... أخبرتهـم انهـا تريـد تلـك اللوحـة في عـشرة أيـام. وعندمـا سـألها (عنقـود) بلامبـالاة واثقـة عمـن وقـع اختيـار اللجنـة عليـه .. ابتسـمت وقالـت : «أنتـما الاثنـان !!» ... نظـر (عنقـود) إليهـا في ذهـول وأرغـى وأزبـد، فهدأتـه بالإغـراق في مدحـه وأنهـم لم يشـكّوا للحظـة في إنـه الرجـل المطلـوب، لكـن الأفـكار يمكـن أن تتضاعـف لـو شـارك رجـل آخـر (تعلّـم مـن فنـه العظيـم) بمزيد مـن الرسـم... سـكن وأودع (باسـط) سـيل مكثـف مـن نظـرات الاشـمئزاز.. ثـم عندمـا رحلـت أتى بلوحـة كبـيرة وشرع في العمـل فـورا دونمـا كلام...

لمـدة سـتة أيـام ظـل (عنقـود) يرسـم بـلا توقـف ... جثـث قتـلى عـلى الجانبـين وغيـوم رماديـة وبـاب حصـن قديـم قـد تهـدم نصفـه، بينـما تحتمـى النسـاء وراء الباقـي منـه في خـوف ... صـال وجـال في اللوحـة حتـى ليـكاد يغـشى عـين الـرائي «عَفَـرة» المعركـة

داخـل المرسـم ... توقـف قليـلا وظـل ينظـر لمقطوعتـه الفنيـة في رضـا، بينـما يرمـق (باسـط) ويبتسـم في شـماتة مـن ذلـك الـذى لم يُقـم لوحـة عـلى أركانهـا، ولا يفعـل شـيئا سـوى تأمـل تـاج صـدئ مرمـي بـين خـردة المرسـم.

في اليـوم السـابع شرع (باسـط) في الرسـم، ووضـع لوحة صغـيرة أدار ظهرهـا لـ(عنقـود) مـما زاد حماسـه أكـثر، وزاد مـن صهيـل الأحصنة ودمـاء القتـلى ووضـع رايـة بيضـاء كبـيرة كي تتـم الملحمـة ...

أتى اليـوم العـاشر وقـد انتهـى كلاهـما .. لم يكـن ثمـة مـكان في المرسـم لموضـع قـدم مـن شـدة زخمـه بـالأدوات والفـوضى ... جـاءت الفتـاة فوجـدت البـاب مفتوحـا فدخلـت حـذرة، فـإذا بـكل منهـما يتدثّـر بقوائـم لوحتـه التـي نـام تحتهـا ... ضحكـت في صمت مـن منظرهـما المـزرى، وأحبـت أن تـرى إبداعهـما دون أن يكـون لديهـما حـق الـكلام والتعقيـب ... أرادت أن تفهـم اللوحتـين دون حاجـة لـشرح، والتـي سـتقنعها أكـثر هـي التـي سـتحل في المتحـف كي تـروى ملحمـة لملايـين يقفـون أمامهـا للحظـات كل يـوم.

نظـرت إلى لوحـة (عنقـود) ووقفـت أمامهـا في انبهـار لدقيقـة ... تـكاد تفاصيـل الرسـم تُنبـئ عـن صراع لم يشـهده التاريـخ مـن قبـل... أظهـر أبطـالا دكـوا حصنـا عـلى رؤوس أصحابـه، فاستسـلم لهـم العـدو بعدمـا تفـرق جمعـه وسـقط أكـثر جنـده بـين أيديهم... لكنهـا عندمـا دقّقـت النظـر وجـدت انهـا لا تـدرى أيـن قامـت

تلك المعركة وبين من ... لم يظهر في المتلاحمين أي دليل على بلديهما، ولم يكن زي الجنود الأحمر والأزرق يعنى شيئا، ولم تفلح الراية البيضاء أن تقول من الذى استسلم حقا، وما مصير أهل الحصن بعد ذلك ...كل تلك التفاصيل حيّرتها كمتفرجة لا تدرى تاريخ اللوحة، فقامت في شرود وتوجهت إلى لوحة (باسط) .. وقفت أمامها للحظة ثم ابتسمت ...

كانت اللوحة لملكهم القديم بتاج بلادهم المعروف، وقد انحنى راكعا أمامه ملك إمبراطورية العدو، يسلمه تاجه في ذل واستسلام ... شعرت بمعنى الهزيمة الحقيقية المتمثل في خضوع الملك، فأينما استسلم ملك استسلم شعبه ... رأت في وجه الملك المنتصر المرسوم بدقة أبتسامة متسامحة تحكى عما فعله بعدوهم في الواقع، عندما أصدر عفوا ملكيا عنهم وأدمج جنودهم وسط جنده ...

لم تضطر أن تقف كثيرًا كي تفهم أبعاد اللوحة ... فقد أدَّت دورها، وحكت في تفاصيل قليلة النصر والهزيمة في أبسط وأكمل صورها ...

البحيرة السوداء

طوى الزمان على بحيرة عذبة تحتضنها ضلوع غابة بعيدة... كانت الشمس توزّع ضوءها على الكون كله، وتخصّها بخيوط من النور تنفذ لباطنها فما يبقى أحدٌ من الكائنات إلا ورأى ما بدخلها دون أن يحجبه عنها عفر التراب... يأتي إليها الأرنب والثعلب كي يرتويا بعدما أُجهدا في الركض وراء بعضهما، فتعكس صفحة ماءها ذعر الأرنب وخبث الثعلب وتضحك فتتوقف غرائز الحيوانات لثانية مشدوهة لرنة ضحكتها ... ثم إذا انتهت وسكنت، عاودا الركض وقد ارتشفوا منها ما يعينهما على إكمال رحلة عبثهما معا...

كانت مرآة تعكس الكون بداخلها ... لم تعرف الأرض بحيرة أشد عذوبة منها ولم تحوِ يومًا على غير الصدف الأبيض الذى نامت بداخله مئات اللآلئ وجبالٌ من الرمل الناعم وبضعة أوراق من الشجر ... ظلت هناك سنينا طويلة تتلألأ على صفحتها الشمس لتصنع شمسًا أخرى في باطن الأرض ... ذات يوم أحست البحيرة بدبيب خافت غريب عليها ... رأت العصافير تطير من حولها ذعرا وأختفى ضفدعها المفضّل داخل أحضانها ... ألتفتت فرأت إنسانا لأول مرة ... أخذ يقترب منها وهى خائفة لكنها لم ترد أن يظنها كذلك، فسكنت كما هي ... قرّب وجهه إليها فوجدته جميلا تحمل عينيه حزنا لم تره مثيله من قبل ... ثم فجأة انسابت دمعة منه بداخلها فاضطربت صفحتها ودخل بها لأول مرة شيء من ذات كونها ... دموع من ماء ... فأسكنتها بداخلها

وذابت معها كما لو كانا كيانا واحدا منذ بدء الزمان...

بعدما ارتاح الإنسيُّ قليلا ذهب نحو شجرة قريبة وارتكن إليها ... أخذ يطيل النظر إلى البحيرة وهى ساكنة تتظاهر بأنها تنظر للسماء والكون وهى لا ترى سواه ... ثم فجأة اقتلع وردة بجانبه وألقاها إليها فلم يدرِ سوى بصفحتها وقد اهتزت بشكل أثار استغراب الكائنات من حولها ... أخذوا ينظرون إليها ويتخافتون همسا ثم ضحكوا من ذلك التصرف المفاجئ منها ... وعندما ألتفتوا وجودها تبتسم وتهتز سعادة في غفلة من الإنسيّ وهو يدير ظهره ويذهب ...

أتى إليها اليوم التالي بخطوات حائرة، فكتمت صرختها وتحولت إلى جريان ماء سريع أفزع الضفدع فقفز خارجها وهو ينظر إليها غاضبا ... حنت وراقت مرة أخرى فعاد تحت الماء وهو يرمقها خوفا من نوبات جنونها التي لم يعد يدرى لها وقتا ... اقترب منها الإنسيّ وأخذ يتأمل وجهه طويلا ... ظنته يتأمل جمالها فسكنت تمامًا حتى يرى أجمل ما بداخلها من لؤلؤ وجواهر مكنونة فيحبّها أكثر ... ثم عندما ملّ، نهض وسار مبتعدا دون سلامٍ، فأظلمت ورأى القمر صورته تلك الليلة وقد تكسّرت على صفحة ماءها الحزين...

عاود الإنسيّ مجيئه بعد ذلك عدة مرات، فكادت تُغرق شطآنها من فرحتها ... كانت ترافقه عصا طويلة مشبوكة بطرف حاد...

لم تفهم البحيرة كنهها في البداية، لكنها بعد ذلك رأت ما تحويه بطنها من لؤلؤٍ وقد ارتمى خارجها ولم يبقى فيها سوى بقايا الصدف ... لم تشتكِ، وظل يوما بعد الآخر يمتصّ من داخلها أكثر، ويثير رمالها الساكنة حتى أصبحت خاوية، ولم يعد ماءها رائقا، ولم تعد تحمل من الحب للكائنات حتى تعطيها المزيد. أتى الإنسيّ يوما وهو يرتعد من الغضب ... أخذ يبحث حوله في وحشية عن شيء ما، وهى تنظر إليه في ذعر، وتحاول الفرار بمائها إلى جنبات الشط... ثم أمسك حجرًا ثقيلا وألقاه على وجهها بقوة، فأنفجر الألم بداخلها وتناثرت نقاط الماء من كل جانب ... ثم أخذ حجرًا أخر وألقاه وهو أشد غضبا... ثم طينا ... وأوراق شجر ذابلة ...وكل ما تطاله يداه، وهى تتأوه من الألم وصفحة ماءها تزداد غبارًا وسوادًا... لا تدرى ماذا فعلت وهى في كل ذلك تخشى أن يلتوى كاحله في مغبة غضبه فيسقط داخلها ويغرق ... فأخذت تهتاج أكثر وتنثر الماء في وجهه بقوة لتُبعده... لتحميه من نفسه ... ثم عندما انتهى كل ما حوله نظر إليها في مقت، وجرى بعيدا وهى تناديه بكل ما تملك من صمت.

غاب عنها أياما وليالي لم تعد تعرف عددها ... كانت تأتيها الشمس فلا ترضى أن يلتمع ماؤها ردًا لتحيّتها.... يسقط عليها ورق الشجر فتلفظه على الشط ولا تحتمل أن يقترب منها ... حزن الضفدع على حالها وحاول أن يداوى ما بها فأخذ يحمل ما بداخلها من طين وحجر، لكنه كان أكثر من استطاعته،

فـأتى بأسرتـه تؤنسـها لكنهـا نفـرت منهـم جميعـا ولم تعـد تنظـر إلا لنجمـة بعيـدة تتوسـل إليهـا أن تُعيـد مـن تحـب ..

في يـوم مـن الأيـام سـمعت صوتًـا مـا ... قامـت مـن سـكونها وتحركـت أمـواجٌ ضعيفـة بداخلهـا ترهـف السـمع ... إنـه هـو!!... تعرفـه مـن دبيـب قدميـه السريـع المتباعـد ... صرخـت تنـادى الضفـدع ... إنـه هـو!!... اسـتيقظ مـن نعاسـه وجـرى كي يـرى مـا هنـاك ...غـاب لحظـات ثـم عـاد مـرة أخـرى ووجهـه مكفهـر... نظـرت إليـه.. مـاذا!.. ألم يعـد !... أطرق برأسـه في صمـت ... أرهفت السـمع ثانيـة ... إن الصـوت متقـارب تلـك المـرة ... بـل هـما صوتان عـلى الأرجـح ... صـوت اثنـين وليـس واحـدًا!

ظهـر الإنـسيّ بعـد لحظـة وخلفـه فتـاة كأجمـل مـا يكـون عليـه الإنـس، كأقبـح مـا يعكسـه المـاء ... أخـذ يشـير للمـكان في سـعادة، ثـم ركـض وراء حبيبتـه بجانـب الشـط وقدمـاه تردمـان وجـه البحـيرة بالـتراب ... كانـت الشـمس غائبـة ذلـك اليـوم ووقفـت الكائنـات مطرقـة رأسـها أمـام تلـك البحـيرة ...

التي كانت يوما ما كأعذب ما يكون ...
ثم حوّلها صيّادها إلى مستنقعٍ أسود للأبد ...

لا أريـدك

«اذهب عنّي... أنا لا أريدك!!!»

ركض فوق حطام المزهرية المكسورة، وصدى صرختها يتردّد في أذنيه... ثم دفع من أمامه أخوين له وركل ثالثا وهو يجرى ويبكى لا يدرى أمن ألم صفعة وجهه، أم صفعة الكلمة !

أغلق باب حجرته واندفع نحو دميته يحتضنها كما لم يفعل من قبل، وظلّ يعتصر نفسه بداخلها، وكأنه يريد الهروب في أحضانها عن غرفته ولعبه ومقبض الباب الذى اهتز لثانية في عنف ثم سكن مرة أخرى ... ظل يبكى وعيناه تراقب عتبة الباب من ثانية لأخرى أملا أن تعود وتقبله وتخبره أنها لم تقصد كلمة مما قالته، لكن ظلها كان بعيدا يمشى في كل مكان إلا ناحية غرفته ... ونام ولسانه ينادى باسمها في حزن، لكنها لم تسمعه...

ظل بعدها ينظر إليها أثناء طعامها وكلامها ويتسلل ليلا خلال نومها ليتأمل ملامحها ... أنها لا تملك ضيق عينيه، وأنفها رقيق مقارنة بأنفه ... هي لا تضحك بصوت عالٍ مثله ولا تقرض أظافرها مثلما يحب أن يفعل ... هي بيضاء باردة كالثلج وهو بشرته نحاسية متوقّدة... لم تفتعل الغضب تلك الليلة عندما دفعته عنها بعيدا ... هي بالفعل لا تريد من ليس ابنها، وها

هـم أخوتـه يجتمعـون حولهـا فتقبّلهـم واحـدًا تلـو الآخـر عـداه... نعـم يـدرى أنهـا تناديـه كي ينـال نصيبـه هـو الآخـر، لكنـه يعلـم أنهـا كاذبـة لا يعنيهـا سـوى أن تصطنـع الحنـان للقيـط ضمتـه إلى أولادهـا الخمسـة ...إنـه يعلـم أن أمـه الحقيقيـة في مـكان مـا .. أمـه التـي تحبّـه وتفـزع لبكائـه وتريـده مهـما فعـل ...

عندمـا كـبر قليـلا زاد اهتمامـه بقصـص المفقوديـن والتائهـين وأصبـح يبحـث عـن وجهـه بينهـم ... كان يشـعر بأمـه الحقيقيـة قريبـة للغايـة، تتنسّـم أخبـاره وتجـوب الشـوارع بحثـا عنـه فأخـذ يسـاعدها وظـل يربـط بـين ملامحـه وملامـح أي أمٍ تداعـب ولدها... فقـد اهتمامـه بالبيـت تدريجيـا وأصبـح يـأكل أغلـب الطعـام خارجـه... وعندمـا كانـت تصيـح بـه (أمهـم) أن يأخـذ غدائـه معـه، كان ينظـر في عينيهـا بانكسـارٍ ثـم ينسـلّ خارجـا ..

عجبـت لتغـيّره نحوهـا، وانزوائـه عنهـا وكلمـة (سـحر) التـي مـا ينفـك يناديهـا بهـا ... ظنتـه نـزق شـباب عـادى تعلّمـه مـن أقرانـه لكنهـا كانـت تشـعر بتعمـد الإهانـة فيهـا ... نهرتـه مـرة عـن ذلـك، لكنـه ضحـك سـاخرا فأوشـكت عـلى صفعـه وهـى لا ترتـدع عـن ذلـك مـع صغـير ولا كبـير مـن أولادهـا فلمحـت في عينيـه مقتـا أخافهـا منـه ... شـعرت لأول مـرة أن أمواجـا سـوداء فصلتهـا عـن ولدهـا أثنـاء مـا كانـت تتلفـت للحيـاة وتحـاول أن تنقـذ قُوتَهـم الـذى أبتلـع مـوت زوجهـا أكـثره ... فحاولـت أن تلـين معه وتسـترده لكنـه كان يـزداد قسـوة وهـى لا تفهـم، وكبريـاؤه وخوفـه مـن أن

يسـمع الحقيقـة يمنعـه أن يصارحهـا بشـكوكه وعـذاب قلبـه ...

لكنهـا كلـما اشـتكت مرضًـا واسـتلقت في فراشـها أياما كان يجلـس تحـت قدميهـا ويبـكى لا يعـرف لمـا؟! ... إنـه يريدهـا أن تحبّـه وهـى التـي لا تريـده ... يريدهـا بجانبـه رغـم أنهـا لا تخصّـه... كلـما أتتـه تلـك الهواجـس يظـل يلومهـا أكـثر عـلى أقـل فعـلٍ ويخـرج منـه الـكلام حـادا قاسـيا كأنـه لم يقـدر أن يغـرز قلبهـا بسـكين، فأتخـذ مـن لسـانه شـفرة حـادة تجرحهـا بـين الحـين والآخـر ... لا يـدرى لمـا لا يتجاهلهـا فحسـب ويسـير في الحيـاة وكأنهـا غـير موجـودة ... لمـا ينتظـر أي أمـل في أن يصلـح مـا بينهـما وهـو الـذى عمـد بـكل جهـده أن تخشـاه ولا تعـرف شـيئا عنـه ... لمـا لازالـت عالقـة بقلبـه إلى هـذا الحـد !!

ذات يـوم قـرر الرحيـل مـن ذلـك المـكان للأبـد ... كانـت فرصـة عمـره ودراسـته وهروبـه فلـم يدخـر وسـعا بالاجتهـاد والمدارسـة والسـعي في إجـراءات السـفر حتـى أتى يومـه الأخـير ... وقفـت تودّعـه ودمـوع عيناهـا تطـل بـكل الكـذب والقسـوة والخـداع الـذى عـاش فيـه طـوال عمـره، لكنهـا حينـما فارقـت يـده وألتفـت موليـا ظهـره، سـكب دموعـا بـكل خطـوة كانـت تبعدهـا عنـه ...

كانـت الغربـة قاسـية لكـن رغبتـه في أن يثبـت لنفسـه ولأهـل بيتـه أنـه كان ناجحـا ذكيـا بـل أذكى واحـدا فيهـم، جعلتـه يتحمـل و يجتهـد حتـى بـات اسـمه معروفـا في دنيـا العقـارات هنـاك في تلـك

البلـد صغـير المسـاحة كبـير الأحـلام ... أرسـل اليهـم أمـوالا طائلـة وكان في كل مـرة يـودع ورقـة بنكنـوت كان يُـودع معهـا رسـالة إليها، أنهـا رغـم زهدهـا في شـخصه فلازالـت بحاجـة لمالـه، ويـرى وجههـا وهـى تلهـج لـه بالثنـاء والدعـاء، ويعلـم جيـدا أنـه ود المحتـاج إلى سـيده الـذى ملكـه بمالـه فيزيـد في الإيـداع ...

أحـب فتـاة تشـبه ملامحهـا كثـيرًا وأخبرهـا أنـه يريدهـا مثـل أُمّـه... فضحكـت وأخبرتـه انهـا أمـه وأختـه وحبيبتـه وكل إنـاث العـالم لـه ... لكنـه كان يقصـد مـا يقولـه بالفعـل ... أراد مـن تحتضنـه ويحتمـى بداخلهـا مـن خوفـه ويأسـه رغـم مـا يُبـدى للنـاس مـن قـوة وقسـوة ... أراد مـن تنظـر إليـه دونمـا يشـعر وتقـرأ مـا بـه دون أن يبـذل عنـاء التعبـير والـكلام ... مـن يتشـبث بهـا كالطفـل الصغـير في مناسـباتهم وأفراحهـم وعندمـا يفلـت مـن يدهـافي غفلـة، تظـل تبحـث عنـه، كمـن لا يعنيهـا في الحيـاة سـواه ... أراد مـن تعيـش عمرهـا تفكـر كيـف تسـعده.

تفهمـت مشـاعره وأغدقـت عليـه بـذكاء الزوجـة التـي تعـرف كيف تمنـح الحـب بـكل تراجمـه ..فاسـتقرت عاطفتـه حينًـا، وبـدأ ينـسى مـا كان مـن أهلـه، وإن ظـل في قلبـه نقطـة بعيـدة مـن المـاضي، تركهـا سـهوا أو ربمـا عـن عمـد ...

ذات ليلـة رن هاتفـه وأتـاه صـوت أخيـه مـترددًا في البدايـة ... رد عليـه بـبرود فأخـبره أن أمهـم عـلى فـراش المـوت وتتمنّـى أن تـراه

قبل الرحيل ... سمعت زوجته صرخة عالية، وعندما ركضت لترى ما هنالك، وجدته يجرى كالمجنون حول نفسه، ولم تستطع أن تترجم سوى «ستموت» « لابدّ أن أرحل» ... فكفتها تلك الكلمات وأمسكته من يده وجرت به إلى المطار وهو يكاد يُغشى عليه بين خطوة واخرى ...

دخل الغرفة ... بقى إخوته بالخارج وتركوه يودّعها وحده احتراما لتلك اللحظة ... كانت الغرفة شبه مظلمة ودثار واهن فوق الفراش يعلو ويهبط يُنبئ عن انتظارها له قبل رحيلها ... ركض إليها وارتمى على بطنها ... ظل يشهق ويبكى كما لو كان يخشى أن تجفّ أنهار دموعه فأراد أن يسكب كل قطرة منها... شعر بقلبه يكاد ينفجر وهى تضم رأسه في حنان.. أخفى وجهه بداخلها ثم رفع رأسه وأخذ ينظر اليها .. كانت عيناها قد أوشكت على المغيب، فأراد أن يسألها سؤالا واحدًا... سؤالا ظل طوال عمره يخشى ويهرب من إجابته ... لكنه لم يعد هنالك فرصة سوى تلك اللحظة ففتح فمه وهمس :
«أتذكرين تلك المزهرية التي كسرتها ؟!!»

بدت أمّه في سكرات الموت ذاهلة عما يقول ... لكنها حينما رأت التماع عينيه ولهفته للجواب حاولت جاهدة أن تتذكر :
«أيهم تقصد يا بنى !!»

قال «تلك التي أوقعتها في صغرى»
بدأت تتذكر ...
قال : «هل كنتِ تعنين ما قلتيه حينها حقا «
ثم همس في خفوت :» إنكِ ... لا تريدينني!!»

نظـرت إلى دموعـه وارتجـاف شـفتيه... نظـرت إلى رأس ابنهـا الصغير الملتصـق بهـا، والـذى لم يسـمح لهـا أن تلمسـه منـذ ثلاثـين عامًـا... فأخذتــه بــين أحضانهــا وضمتــه طويــلا، وكأنهــا تتمنّــى نســيان اللحظـة التـي خـرج فيهـا مـن رحمهـا وظـل بداخلهـا للأبـد ...

ثم ارتخت يداها عنه وسكنت...
فصرخ قلبه ينادي من لم يُرد في الدنيا غيرها: «يــا أمي !»

إذا رأيت إنسانًا أحاط نفسه بأسوار سجنٍ
وصبارٍ جافٍ
وأميالٍ من الأسلاك الشائكة
ولافتاتٍ تتوعّد من يقترب
وما زلتَ رغم كل ذلك تسمع حديثه خافتا
فاعلم أنه ليس وحده بالداخل
بل هو يترجّى خوفه كي يطلقه

«أي أوامر أخرى يا سيدتي؟»
«كلا .. شكرا لك !! »

ثـم اسـتدار مبتعـدا تـاركا ورائـه مقعديـن وفنجانـين مـن القهـوة وشـبحًا خافتًـا لفتـاة تجلـس في سـكونٍ، وتغـوص في معطـفٍ بنـيٍ سـميكٍ ...

كانـت دائمـا لا تجلـس إلا لطاولـة بكرسـيين... لا تحجـز إلا تذكرتين... لا تطلـب أي شيء إلا لاثنـين... واحـدًا لهـا وواحـدًا للكـرسي الشـاغر أمامهـا ... لم يضايقهـا نظـرات النـاس وإشـاراتهم الخفيـة لجنونهـا حينـما تظـل تتحـدث طويـلا إلى الفـراغ وتبتسـم وتومـيء برأسـها، وكأن مـن أمامهـا يشـاطرها الـرأي والإحسـاس والفهـم ... فهـي تؤمـن أن بداخلهـا (إنسـانًا) آخـر يسـكن كيانهـا تسـتطيع أن تسـتدعيه مـن آن لأخـر، وتـراه ماثـلا أمامهـا يشـاطرها السـعادة والـكلام ... أطمأنـت إليـه، وأحبّتـه، وتمنّـت لـو اسـتطاعت أن تتأبـط ذراعـه يومـا، وتشـير إليـه للنـاس كي تخبرهـم أنهـا ليسـت بـاردة قليلـة الـكلام كـما يدَّعـون، بـل هـي لا تبـوح بسرهـا إلا لمـن سـكن وجدانهـا ووثقـت بـه فحسـب ...

اعتـادت أن تذهـب لذلـك الوطـن الصغـير الـذى تحبـه في سـاحة الأوبـرا ... قهـوة صغـيرة قديمـة ذات مقاعـد متناثـرة هنـا وهنـاك... فيهـا مـن سـكون الكـون ورقـة نسـمات الهـواء وابتسـامة النـادل

المرحّبة، ما يجعلها تحب الجلوس لتقص وتحكى لمقعدها الفارغ دون أن يضايقهما أحد... ثم عندما يُنهيان الحديث تظل تراقب رؤوس الناس من حولها وتتعلق روحها كثيرًا بفرقةٍ صغيرةٍ تجلس قُبالتها وتعزف ألحانا قديمة في جزلٍ ...رغم شجاعتها وجراءتها في الحديث مع (إنسانها) الداخلي أمام العالم كله، إلا أنها لم تجرؤ يوما أن تكسر حاجز خجلها وتعبر لتلك المجموعة رغم ما يحمله قلبها من حبٍ لغناءهم وتوحّدهم مع ذلك المكان الذى تعشقه ...

لكنها أتت تلك الليلة وليس في قلبها أدنى رغبة للحديث مع نفسها ولا مقعدها ... طَلبت بروتينية فنجانين من القهوة، وحينما وضع لها النادل طلبها لم تقدر أن ترد ابتسامته، واكتفت بأن خفضت نظرها على المائدة تتأمل قهوتها في يأسٍ... كان يأسًا من النوع المفاجيء الذى لا سبب له سوى أن قطار الحياة يمضى وقضبانه تعوى من سرعته وهى في كل ذلك مذعورةٌ غير قادرةٍ على شد الصافرة أو حتى القفز لمحطتها الفائتة ... لم يكن من ثمة سببٌ معروفٌ تستطيع أن تحلله، أو تفهمه، أو تخطه على الورق كي تُفرغ ما بها وتستريح ...فاكتفت بأن أطرقت رأسها وهربت بعينيها من النادل والقطة الممددة بجانبها وفرقة العازفين وكل ما تحبّه في وطنها الصغير لئلا يرى دموع حزنها ...

عندما أتى على آخر صفحة من الرواية زفر طويلا ثم ألقاها أمامه في ملل ... لم يظن أن نهايتها بتلك السذاجة، وأخذ يندب دقائق عمره الثمينة التي أضاعها في فهم هراء لا طائل منه ... لكنه فكر أن الأمر ربما ليس بهذا السوء فهو على أية حال يجلس في ذلك المقهى الصغير بالأوبرا منذ ساعات لا يكاد يفعل شيئا سوى معاندة الفراغ ... ألتفت حوله علّه يجد في وجوه الناس ما ينسيه العلقم الذى تجرعه لمدة ساعتين أو يزيد ... كان يحب عادة التدقيق في وجوه الناس مرة خلسة ومرة بجراءة تجعل من أمامه لا يملك سوى أن يحملق فيه صراحة كي يُبعد نظره ... ويتألق في تلك العادة بالذات في ظلام الليل حيث تتقارب المقاعد ويعلو الهمس ويصبح للحديث غموضًا يُكسبه فضولا أكثر ... نظر فوجد فرقة من العازفين وهى تشدو بأغنية (يا شادي الألحان) لسيد درويش فوجدها سخافة أن يأتي أناسٌ من القرن الحالي كي يترنموا بماضٍ قد مات واندثر... كان يحب الموسيقى والغناء لكنه يحب الإبداع والاختلاف أكثر، ولا يجد فيمن يقلد الماضي سوى مُفلس لا يملك في جعبته سوى دنانير ودراهم لم يعد يشترى بها أحد ...

لم يجد فيهم شيئا مميزًا سوى فتاة صغيرة أخذت تشدو أغانيهم بحنجرة جاوزت حدود السن والزمان بكثير... ورأى في تموج صوتها المحترف وضحكة عيناها ما جعله يُثبّت نظره عليهم لدقيقة ثم أخذ يبحث عن شيء أكثر إمتاعا ... تسلل بنظره إلى فنجانٍ يجلس وحده أمام مقعدٍ فارغ، تعجب

قليلًا وأكمل دخول حيز المشهد فوجد فتاة تجلس على كرسي يقابله وتطرق رأسها في صمتٍ ... استكان مع هدوئها ثم وجدها تُحرك رأسها لقطّة تموء عند قدميها ... نادت النادل وأخبرته بشيء ما، فذهب وعاد بطبق من النقانق ؛ فوجد القطة وقد كادت تقفز على المائدة من فرط جوعها لولا ان أمسكت الفتاة بقطعة اللحم وناولتها إياها ... أخذ يراقب حركات الفتاة الآلية وهى تُطعمها في رفق، وحدس أن ثمة علاقة قديمة بينهما ، ودَّعم حدسه بأن وجد القطة بعدما أجهزت على اللحم كله قد التصقت بقدم الفتاة، وأخذت تلعق فروها ثم أسبلت عينيها وأخذت تُهرهر في رقة ...

بعدما انتهت من إطعام القطة شعرت بشيء من الأمل يعاود روحها فتيقّظت حواسها وبدأت تشعر بما حولها ... وجدت قهوتها وقد استحال وجهها إلى غشاء بنىّ كثيف لا دخان له فطلبت تغييرها ... التفتت فوجدت رجلا يجلس وحيدا ينظر إليها ... لاحظت فيه شعرا رماديا وعينان عسليتان قبل أن تشيح بوجهها عنه ... شعرت أنه في أثناء شرودها قد اخترق سورها اللّامرئى وأزاح القطة وجلس وشرب القهوة وتحدث طويلا وهى لم تنتبه له... فتعمدت ألا تنظر إليه ثانية ولا تُشعره انها أذنت لكل ذلك، وأخذت تعاود الاندماج مع فرقتها وتدندن أهازيجهم في همس ...

نظـر إلى الفـراغ سريعـا عندمـا باغتتـه الفتـاة بنظـرة عـلى غفلـة منـه ... أراد أن يعـرف آخـر الحكايـة ويسـتعيض بهـا عـن نهايـة روايتـه المملـة فـإذا بهـا تخـبره بقصـة مقتضبـة عـن إنسـان فضـولي لا عقـاب لـه سـوى التجاهـل المهـذب ... لم يقتنـع كثـيرًا، وأراد أن يكـون لـه دور في كتابتهـا فأخـذ يُمعـن النظـر إليهـا مـرة أخـرى... وجدهـا تنظـر للفرقـة وتحـرك أصابعهـا مـع اللحـن كعـازف عـثر عـلى سـيمفونيته المفقـودة فأخـذ يـذوب معهـا وفيهـا ... لم يُعنيـه اللحـن ولا الكلـمات بقـدر مـا رأى جـمال انسـجامها وطلاقـة مشـاعرها ... تأمـل وجههـا فوجـد جبينهـا الواسـع يلتمـع مـع كل (يالالـلي) في الأغنيـة وكأنـه سـطح قمـر يعكـس صـدى الصـوت ويغـرق فيـه ... نـسى الزمـان والمـكان ومنطـق الأرقـام، ووجـد أن الواحـد مـا هـو إلا اثنـان امتزجـا عـلى غفلـه منـه، وأن عليـه أن يـسرع ويفعـل ذلـك قبـل أن تـدرك الأرقـام حقيقـة الخديعـة...

تنحنـح وقـام وعـدّل مـن هندامـه ثـم ذهـب في خطـوات واثقـة إليهـا ... تذكـر روايتـه السـمجة التـي خلفّهـا ورائـه، فعـاد وأخذهـا علهـا تكـون فاتحـة شـهية لأى كلام بينهـما ... وزاد مـن شـجاعته عـلى تلـك الخطـوة أن رأى الفتـاة تلتفـت وتبتسـم (تقريبًـا) لـه .

أثنـاء مـا كانـت تراقـب الفرقـة لمحـت بطـرف عينيهـا الرجـل يتحـرّك... شـعرت بوخـز خفيـف مـن الوحشـة يعاودهـا، ثـم عندمـا فكـرت أن مقعدهـا و(إنسـانها) لازال أمامهـا لم يفارقهـا ابتسـمت لـه وعدّلـت مـن مقعدهـا كي تُكمـل حديثهـم المبتـور ... وبينـما

هـي كذلـك، فوجئـت بالرجـل يسـتأذنها أن يحتـلّ مـكان الكـرسي المقابـل ويجلـس ... نظـرت إليـه في ذهـولٍ ... لم تعـرف كيـف تـرد فأعتـبر ذلـك موافقـة صامتـة وجلـس ... أخـذ يُحدّثهـا في ارتبـاكٍ عن رؤيتـه لهـا تجلـس وحدهـا وأنـه هـو كذلـك ... وأنـه رآهـا تحـب الموسـيقى والشـجن وهـو كذلـك ... وأنـه رآهـا تداعـب القطـة التـي يعشـقها كذلـك ... ففكـر أنـه ربمـا يوجـد اهتمامـات أخـرى بينهـما يمكـن أن تُضـاف إلى قائمـة تشـابههما ...

كل ذلـك وآلاف الكلـمات تـدور بداخلهـا دون أن تقدر عـلى نطقها.. لا تفهـم مـن كلامـه سـوى أنـه يريـد الحديـث معهـا ... لا تـرى منـه سـوى أنـه يجلـس عـلى كـرسي (إنسـانها) ويحتـل مكانـه في وقاحـة ... كيـف جـرؤ وفعـل ذلـك ! ... كيـف يضـع نفسـه عـلى قـدم مسـاواة معـه ويتحـدّاه علنًـا هكـذا ... ذلـك الـذى ظلـت طـوال عمرهـا تحبّـه وتكلّمـه وتفهمـه ويفهمهـا ... كيـف تسـتبدل بـه إنسـانًا آخـر مـن لحـم ودم لا تعـرف عنـه سـوى أنـه كان يرمقهـا خلسـة ... تَعجـبُ كيـف يدّعـى أنـه يعرفهـا وهـو لم يكلّمهـا كلمـة، ويريـد أن يزيـح حبيبهـا ومؤنسـها بقـوة آدميتـه دون أن يسـتأذن قلبهـا حتـى ...

نظـرت إليـه وقارنـت بـين فضولهـا لمعرفتـه وهـو بعيـد عنهـا وذهولهـا وخوفهـا مـن تلـك المعرفـة عندمـا اقـترب منهـا ... فكـرت في (إنسـانها) الداخـلي وحبيبهـا الـذى تثق بـه قريبـا كان أو بعيدا، لا يجـرح قلبهـا ولا يتركهـا ولا يقـرر يومـا أن جلوسـهما معـا وحديثهـما

عـن ذكرياتهـما المحببـة أصبـح سـمجا لا طعـم لـه ...

فكانت أن قامت بحدة وتركت مائدة ...
كانت دوما بها كرسيين ...
وشخصا واحدا ...

“ أوحش حاجة لو قررت تبقى عادى
تبقى واحد وسط زحمة من العبيد
أوحش حاجة لو قررت تبقى عادى
تبقى سبب أن حر
يعيش وحيد ”

كايروكى

كأس الجارية

كان الضوء خافتا والجو معبقا برائحة الستائر الحمراء التي تراها لأول مرة ...

سارعت خطاها قليلا، كي تلحق مرشد التذاكر في المسرح، وأسعدها أنها أول من دخل القاعة كي تجيل النظر في المكان دون أن تصطدم بعيون تُخجلها... لم تكن يوما من رواد المسرح لكنها منذ رأت إعلانا مهملا في إحدى الصحف عن بدء عرض مسرحي لفنانها المفضل وقد أصبح الأمر شغلها الشاغل حتى وصلت لطريق الحجز والذهاب وها هي تدخل أرض الميلودراما(*) وحدها بكل ما تحويه من سحرٍ ...

جلست على أحد المقاعد في صفوف الوسط ... لم تُرد أن تكون تحت أقدام من يحرجها بدعابة عفوية، ولا أن تبتعد كثيرًا فلا يكون هناك فارق بين قتامة التلفزيون وعالم السحر الذى تجلس بداخله بالفعل ... أخذت تجيل النظر في الوفود الداخلة، فوجدت أغلب الصف الأمامي كهولًا تقترب رؤوسهم من بعض واثنين يبدوان مألوفين لديها دون أن تتذكر من أي ناحية ... نظرت حولها فوجدت عائلات متناثرة تشابهها وإن كانت أكثر ألفة واعتيادا على جو المسرح ... وفجأة سمعت صخبا عاليا

(*)الميلودراما: الدراما الموسيقية والتي تستخدم فيها الموسيقي لتزيد من حدة رد الفعل العاطفي عند المتلقي.

مـن الخلـف، فوجـدت مجموعـة شـبابية مختلفـة النـوع والعمـر تضحـك وتطلـق نكاتـا تضيـف هالـة هزليـة عـلى رهبـة المـكان... لم تهتـم كثـيرًا ووجـدت الحـراس يقفـون عـلى الأبـواب متحفّزيـن لأى بـادرة شـغب. لكـن أكـثر مـا ضايقهـا بالفعـل جلوسـها بجانـب كامـيرا كبـيرة في منتصـف المـسرح، يعتليهـا رجـل يحـد مـن جولتهـا الاستكشـافية للجانـب الأخـر ... سـمعت همسـا بـين الرجـل وأحـد الجالسـين، ففهمـت أن هـذا هـو يـوم تسـجيل المسرحيـة للتلفزيـون وقـد أوصـاه الرجـل بـأن ينفجـر في الضحـك حينـما تـأتى العدسـة بشـكل عفـوي عليـه.

رغـم كل الحركـة والتوتـر مـن حولهـا كان الجـو دافئـا وسـاحرا وابتسـمت وهـى تغـوص داخـل مقعدهـا وسـط زخـارف المـسرح القديـم وسـتائره المسـدلة التـي ستكشـف بعـد لحظـات عـن عـالم أخـر يمـوج بالحيـاة، سـيكون لهـا الحـق لأول مـرة أن تضحـك فيـه وتبـكى وتنتقـد وتصفـق وتسـتهجن دون أن يسـتنكر فعلهـا أحـد ...

سـاد الظـلام ورُفـع السـتار ... كانـت الخلفيـة لقاعـة ملكيـة يتوسّـطها عـرشٌ ذهبـي ويحيطـه اثنـان مـن الحـراس، وبضـع جـوارٍ، تلمـع أغطيـة رؤوسـهم تحـت مصابيـح المـسرح... صفـق الجمهـور مجاملـة، ثـم دخـل ممثـل يرتـدى ملابـس قـروى، فصفّـق لـه الجمهـور بحـرارة خاصـة الصفـوف الخلفيـة... أخـذت تدقـق النظـر علـه يكـون أحـد المشـاهير ذوى الوجـوه المنسـية لكنهـا لم تعرفـه، وعللـت ذلـك بـأن ممثـلي المـسرح بالتأكيـد يختلفـون والغريـب

أعمى ولو كان بصيرا ... بدأ القروى يغازل الجواري وينشد شعرا مبتذلا، لكن صافرات الاستحسان كانت تتزايد كلما ساء الأداء، فحاولت أن تتخيل أي لمسة جمالٍ في ما تراه فلم تجد ...

دخل فنانها المفضل في زي الملك فصفّقت بحرارة وأحمر وجهها حماسة وخجلا... كان أوسم وأظرف من أي مرة رأته فيها... ظل يلقى بالنكات لحراسه وأحيانا للجمهور فكان صوت ضحكها يغطّي على صوتهم جميعا ... وبينما الملك يمازح حراسه، دخل قطيع من القرويين والشحاذين ووقفوا أمامه ... كانت المسرحية تحكى عن ملك يفرض جباية ثقيلة على الفقراء من رعيته ويسلط حراسه لجمعها بينما أغنياؤهم هم أحبابه وأصحابه... تحمَّل الناس ذلك الحال سنين حتى بارت حقولهم وخلت دكاكينهم، فبدأت وفود منهم تطرق بابه تتوسل شظف العيش بكل ما أوتيت من ذل.

وبينما كان الملك يستعرض فنون التنكيل بهم تركز الضوء على جارية بعينها وخفت كلام الملك وشحاذيه من حولها ... كانت تملأ كأسا وتدس فيه مسحوقا أبيض لم تحر (الفتاة) طويلا لتدرك كنهه من نظرات المقت التي تغرسها الجارية في الملك... فجأة سمعت (الفتاة) صوتا عاليا خلفها يصيح «اعطه الكأس يا جارية». فالتفتت بحدة لتجد سكيرا يهذى في الصف الذى يليها مباشرة ... كادت تذوب في مقعدها حرجًا وهى ترى كم الحواجب المنعقدة التي استدارت ناحيتها ... ودّت لو يصمت

قليلا لكنه كان في كل مشهد يردد بإصرار هزلى اكثر «اعطه الكأس يا جارية» والجماهير تتأفف في ضجر ...

تعالت أصوات الشحاذين تدعو على الملك والحراس يقرّنونهم في الأصفاد ... كان الأداء بارعا، حتى أنها شعرت بدموع حزن حقيقي تبلل وجهها وهى تنصت لآخر شحّاذ ظل يتأوّه بكلمات موجعة قبل أن يذوب ويختفى مع المشهد التالي ...

دخلت الجارية المشهد حاملة كأس خمر مرتجفة إلى الملك ... كان جالسا على عرشه واضعا رأسه بين يديه، فألتقط منها الكأس في وهنٍ ... أخبرها كم هو وحيد يبحث عمّن يحبه ويُخلص له ...كم هو على قوته وسلطانه يخفى بداخله إنسانا هشا يتمنى من يضمّه ويحنو عليه... كانت آهات معذَبيه تخبو مع موسيقى سَاكسُفونية(*) تنثر ألحانها على المكان في ذات الوقت ... بدأت ملامح الجارية تتراخى، والأنوار تستحيل لحمرة خافتة وإذا بالسكير يصيح «اعطه الكأس يا جارية» ... فزع الملك والجارية للحظة، ثم تجاهلا فوضى الظلام في القاعة وأكملا همساتهما... تعالت تنهدات النساء وأطرقت رؤوس كثير من الرجال تبحر في أحلامٍ شتّى بين يدي الجارية ...

(*) السَاكسُفون: إحدى آلات النفخ الشهيرة اخترعها البلجيكي أدولف ساكس عام ١٨٤٠

أخـذت (الفتـاة) تتململ في سـأمٍ ... لسـبب مـا وجـدت المشـهد متناقضـا بشـكل سـاذج ... كلـمات حـب يهمـس بهـا فـمٌ كان منـذ لحظـة يطلـق رصـاص ظلـم وافتراء...الموسـيقى عـلى سـحرها تعـزف نشـازًا وهـى تختلـط بأصـوات المعذبـين التـي لم تصمـت بعـد... ثـم فوجئـت بالقاعـة تنفجـر تصفيقـا بعدمـا دفعـت الجاريـة الـكأس مـن يـد الملـك وارتمـت مكانـه ... ولم يفلـح اسـتهجانها أن يعلـو صفـير الإعجـاب الـذى تنافـس في إطلاقـه متفرّجـو الصفـوف الخلفيـة ...

سـمعت السـكير ورائهـا يصيـح بجنـون هـادر «اعطـه الـكأس يـا جاريـة .. اعطـه الـكأس ايتهـا الغبيـة» ... نهـض بعـضٌ مـن الجمهور خوفـا مـن ردة فعلـه، فـأتى حـراس الأمـن واقتـادوه خـارج المـسرح والنـاس تنفـض غبـار كلماتـه مـن المـكان بتصفيقهـم ... واسـتمروا طويـلا عـلى ذلـك الحـال، لكنهـا لم تفعـل ...

وبينـما هـي عـلى اسـتنكارها الصامـت، إذا بالملـك يشـير إليهـا دون غيرهـا ... كانـت ابتسـامته تداعبهـا «وأنـتِ ... ألا تصفّقـين!!» ... شـعرت وكأن أضـواء القاعـة كلهـا قـد انتقلـت كي تتسـلط عليهـا وحدهـا مـن بينهـم ... وكأن الأصابـع المتهِمـة وضجيـج القاعـة وموسـيقاها الهـادرة في جانـب، وهـى بسـذاجة أفكارهـا وقلـة خبرتهـا بقوانـين المـسرح في جانـبٍ آخـر وحيـدٍ أحمـق ... نظـرت ورائهـا لتجـد السـكير يُدفـع خـارج الأبـواب ... التفتـت فوجـدت النـاس تبتسـم لهـا في حـماس وكأنهـا تدفعهـا دفعـا لتحـذو مثلهـا...

شـعرت لأول مـرة أنهـا لا تـدرى شـيئا عـن ذلـك العـالم، لكنهـا أجـبن مـن أن تختلـف عنـه وأضعـف مـن أن تغـادره ..

فردت عليه بابتسامةٍ واسعةٍ ..
وأخذت تصفق معهم في جزلٍ ...

حينما يحب إنسانٌ
فإنه يظل متشبثا بيد محبوبته، يتخبط بها وسط ظلام الحياة

أما حينما يحبّ القمر
فأنه يكسو بردائه الفضي العالم كله، كي لا يعرف الظلام طريقا لها

حـبيبة الـقمر

وضعاها على فراش صغير تعلوه نجوم فضية ونظرا إليها في حنانٍ وأخذا يتأملان جمالها النائم... لم يُرزقا غيرها منذ بداية رحلتهما معا، وظل يأتيهما القمر وهما يبكيان كل ليلةٍ يتوسلان نسيم طفل يدفع سفينة حياتهما سويّا... حتى استيقظت الأم تلك الليلة وشعرت بحركة في أحشائها ... فزعت وظنت أنه قد حان الأجل فذهبت تُودّع القمر، فوجدته يبتسم لها، ويُطمئنها على حلمها المنتظر ...

على كثرة الوجوه التي يطل عليها القمر لم يرَ في تغير منازله جمال طفلة مثلها... كانت ترقد واضعة يديها تحت خدها الوردي، بينما تتناثر خيوط ذهبية كثيفة حول وجهها... وعندما يأتيها النعاس تُخفى أجفانها بحرٌ أزرق صافٍ وتحتفظ به بكل أنانية لنفسها ... جعلوا فراشها تحت النافذة مباشرة كي تنام أمامه وعندما تهب مذعورة في الليل تستيقظ على ضوئه وأمانه... فظل القمر يأتيها كل ليلةٍ ويبتسم لجمالها، فتشع تلك المنطقة النائية من الأرض نورا عمن سواها ...

كبُرَت الفتاة قليلا وكانت تختفى أغلب الوقت وتأتيه في ساعة متأخرة من الليل ... أحيانا تتهادى في الغرفة سعادة، وتظل طوال الليل تحادث نفسها أو هاتفها، وأحيانا تندس تحت أغطية الفراش دون كلمة واحدة ... وهو في كل ذلك يراقب تبدّل شكلها وجمالها الذى يزداد كل ساعة، لا كل ليلة ... لكن

ظلت ساعات لقائهما تقلّ بمرور الأيام ولم يعد كلامها إليه سوى لحظات قليلة تستلقى فيها على ظهرها وتحادثه، قبل أن تخفى عنه عينيها...

رآها مرة ترتجف جفونها وهى نائمة وتتقلب في توتر قبل أن تسكن مرّة أخرى... عرف أنها ترى حلما أو كابوسا وهى التي لم يكن فراشها يتجعد من فرط اطمئنانها وسكونها... عرف أن شيئا فيها تغيّر... أصبح هناك آخرون بداخلها يزورنها ويضايقونها طوال الليل، وهى في كل ذلك لا تملك مقاومة ولا أمر في جسدها إلا رعشة جفنٍ يعترض في صمت ... تمنّى لو ذاب بداخلها وأنار لها المكان حتى تطرد من تحب وتُبقى من تحب ...تمنّى لو كان جزءًا من أحلامها فتراه بين طرقها الحائرة فتستدل به وتسكن ... لكنها ظلت تغمض عينيها عنه، وهو لا يملك سوى أن ينير ملامحها النائمة ...

أتته ليلة تبكى بشدة، وتخفى وجهها بين يديها وهو ينظر إليها ويُلقي عليها نورًا زائدًا علّها تلتفت إليه وتحكى عما بها ... فما كان منها سوى أن زادت في البكاء، ودفنت رأسها في وسادتها وخاصمته دون أن يعرف ماذا ارتكب ... لكنها حينما تعبت خف أنينها واستغرقت في النوم، فرأى تحت عينيها حباتٍ بلورية تختزن حزن العالم بداخلها... أنتفض غضبا وود لو قرأ في وجهها اسم من جرؤ على جرحها، ليمنع عنه نوره ويجعله يكتوى في الظلام كما عذَّب حبيبته هكذا ... لكن ملامحها التي

سكنت ونامت كأن شيئًا لم يكن، طمأنته أنها ستقاوم وتنهض مرة أخرى...

مرّت الليالي على حالها وذات ليلة وجد وجها صغيرا يطّل من النافذة ويمد يديه يريد أن يمسكه ... تعجب قليلا، ثم دقق النظر، فوجد ملامح حبيبته ذاتها لكن على طبقٍ أصغر ... استحال فرحة وأخذ يُقبّل عينيها اللتين تشبهان زرقة أمّها... كانت حبيبته تمسك بصغيرتها، وتداعبها والطفلة في كل مرةٍ تغمز إليه وتضحك... ثم عندما تعبتا استلقت الأم على ظهرها تحتضن الصغيرة، وتنظران إليه .. وانعكس نوره على أربع عيونٍ حلوة، فزادت الدنيا جمالا تلك الليلة فوق العادة ...

وبعد مرور سنوات، وأثناء ما كان يُقبل على بيت حبيبته ليأخذ مكانه سمع صوتا خافتا لبابٍ ينغلق ... انتظر قليلا ثم طويلا ولم يطّل من النافذة أحدٌ ... ظل يبحث عنها في الكون لكنها لم تُعطِه عنوانا، ولا ودعته لتخبره بميعاد رجوعها ... هي فقط رحلت دونما كلمة. وظل يتذكر إن كان قد خفت نوره عنها يوما ما كي تخاصمه هكذا لكنه لم يجد سببا، فأخذ ينثر نجوما فضية فوق ناصية كل شارعٍ، علّها تسير فيه يوما فتراها وتسامحه...

ظلّ القمر يُلقي بظلاله على الكون، ويرى الناس في حزنه سحرا يبتكرون لأجله الأشعار والألحان... كم من قسوة الكائنات ألا

تُقدّر الحزن ولا تحترمه بل وتغنى وهى تنظر إليه في جراءةٍ وتتوسل حبا لم يعد يملكه ... فكر فيها ... كم مر عليها من الوقت ؟ هل تبدَّل شكلها ؟هل تجعدت ملامحها ؟ كم يتمنى أن يراها لليلة ... للحظة ... بأي حال وبأي شكلٍ قبل أن تختفى صورتها من ذاكرته ... ثم فكر في قسوته وجحوده فأخذ يكرر صورتها في كل تجويف وحصى بداخله، وأمسى منذ تلك الليلة وجه القمر هو انعكاس صورتها ... لذلك كان الأحبة ينظرون إليه ويذهلون به عن فتياتهم اللاتي بجوارهم ... فلم تكن أيٌ منهن بقادرةٍ أن تفوق جمال حبيبة القمر.

ذات ليلةٍ سمع صوت حفيف خافتا في المنزل الذى لم يبرح نافذته ... رأى ظهرًا محنيّا يجلس على حافة الفراش وسنوات العمر قد سحقت أكتاف صاحبه فتقوست وتدلَّت... لم يرَ وجه من هذا لكنه عرفها من بقايا شعرها الذهبي الذى استحال رمادًا... كانت متعبة وبالكاد استطاعت أن تزيح بضع ذرات ترابٍ ملأت المكان ...تركت عصاها واستلقت على ظهرها، فرأى القمر وجهها بعد عشرات السنين ... كان مجعدًا متعبًا وقد انطفأت عيناها تحت غماماتٍ سوداء تحكى عن قسوة حياةٍ امتصت روحها حتى الأعماق ... لم تعد تلك الجميلة التي عشق نضارة وجهها وتوقّد عينيها ... لكنها حينما طوت أجفانها واستغرقت في النوم رأى نفس جمالها وسلامها الذى لم يحب يوما سواه ... لم يتغير حنان وجهها رغم قسوة الخطوط فيه، ولم يقل حبها للحياة رغم انكماش كل شيء فيها ... كانت صورتها

التـي طبعهـا بداخلـه هـي ذاتهـا التـي يراهـا أمامـه الآن لأنـه لم يطبـع سـوى مـا يريـد ولم يكـن يريـد سـوى حبهـا ...أخـذ يلمـس بخيوطـه الفضيـة شـعرها المجـدول فـازداد تألقـا ... ثـم فوجـيء بدمـوعٍ لؤلؤيـة تغـرق وجههـا وعيناهـا المغلقتـان تنتفضـان في ضعـفٍ...

أراد أن يخبرها بما اختزنه تلك السنين الطويلة ...
أنه لو لفظها العالم كله، فستظلّ حبيبته وملاكه النائم ...
أراد أن يشـاركها حزنهـا، ولا ينظـر إليهـا بتعـالٍ وبُعـدٍ وجفـاء تلـك المـرة وهـو الـذى يـذوب فيهـا ...
فأخذ يبكى معها ..
وأمطـرت السـماء لأول مـرةٍ منـذ سـنين عـلى تلـك المنطقـة النائيـة مـن الأرض...

إن أكثر ما أعجب له، هو أن أصل العلم والسبيل إليه
يبدأ بالاعتراف الصريح والصادق بالجهل
وكأنك كي تكمل رسم الكون داخل عقلك
لا بدَّأن تترك به دائمًا مساحة بيضاء خالية
قابلة أن يخط عليها العلم أي شيء

جنون الأرقام

كان صوت أستاذ الرياضيات هادرًا في تلك القاعة من قاعات كلية الهندسة ... لكن لم يكن أي صوتٍ في العالم كافيًا كي يوقظه من نومه بعدما ظل ساهرا طوال الليل يرسم لوحته الأخيرة ... نكزه زميله برفق ينبهه بتكرار نظر أستاذهما مرتان متتاليتان لموقعهما وهو يشير بيده بأن (الثالثة تابتة) ... فقام وفتح عينيه وأخذ ينظر لحروف معادلة مكتوبة في كسلٍ ...

كانت الحروف باهتة بلونها الأبيض ولم تكن خلايا عينيه قد استعادت بعد كامل انتباهها، فخُيل إليه أن الحروف تتحرك وتغير أماكنها ... نظر بذهول وفرك بعينيه واستيقظ خياله على فكرة ظلت تراوده منذ زمن، لكنه عندما أفاق وجد حروف المعادلة كما هي، لا تتحرك، ولا تتبدّل.. فاستكان مرةً أخرى وظل يتلفَّت حوله إلى عشرات الأجساد المتحجّرة التي لا يتحرك منها سوى بعض إيماءات الرأس وأصابع اليد على الورق ...

كان منذ صغره يحب الفن كثيرًا.. يحب جنونه وعشوائيته ... علمه أبوه أن يحب الرسم وكان يصحبه لمعارض فنانين ويظل ساكنا أمام لوحةٍ بعينها ساعات طويلة ... حاول كثيرًا أن يقف بجانبه ويفهم ما تقوله اللوحة إلا أنه فشل في ذلك عدة مرات ... فأدرك أن الفن يمكن أن يحمل معانى شتى، لا يتقيد بنظرية ولا براهين، بل هو كنهر جارٍ وفرسٍ حرٍ يصول ويجول

في الكـون يستكشـف مـا عجـز أن يدركـه عقـل البـشر ...

لم يمقـت في حياتـه مثـل الأرقـام بتسلسـلها الممـل، وفرضهـا لقوانـين تحـد مـن انطـلاق عقلـه للمجهـول، فترجـم ذلـك في عشـقه للسـاعات... أحـب فكـرة أن يكـون لديـه مـن يخـبره بالنظـام ثـم إذا بـه يتحـدّاه ويتجاهلـه ... وجـد أن السـاعة تزيـده إيحـاءا بالفوضويـة، فصنـع خزانـة كبـيرة مـن أغـلى السـاعات وظـل يمـر عليهـا كل يـومٍ ويبتسـم في سـخرية...

لكنـه رغـم مـا عُـرف عنـه مـن تلـك الصفـات فوجـئ النـاس بـه يدخـل الهندسـة دون سـببٍ مـبرر .. لم يفقـد عقلـه بعـد، ولم يـروا اللوحـات تُلقـى مـن شرفـة منزلهـم ومـازال يتحـدث بالسـاعات عن ألـوان سـلّة فاكهـة تُلتهـم في ثانيـة ... وعندمـا اجتهـد بعضهـم في السـؤال وجـدوا أنـه كان متفوقـا يحصـد أعـلى الدرجـات بالفعـل .. لكنـه حينـما وُضعـت أمامـه اختيـارات كثـيرة وأصبـح عليـه اختيـار (رقـم) بينهـم أحتـار وتـرك لأهلـه القـرار ...

ظـن الأمـر في البدايـة خفيفـا ... سـاعات النهـار يقضيهـا في أرجـاء الكليـة، وسـاعات الليـل ملكـه وملـك مرسـمه .. لكنـه وجـد أن سـاعات النهـار والليـل لا تكفـى للخـروج مـن ردهـات الهندسـة ... كانـت القاعـات أشـبه بحجـرات تعذيـب يجـرى فيهـا قطـع وشـذب أشـجار عقلـه الثائـرة ... عجـب كثـيرًا لمـا يجـب أن يـدرس ويحلـل الاحتـمالات المختلفـة للوصـول بـين نقطتـين بأقـصر طريـق بينـما

يمكنه أن يحمل حقيبته فوق ظهره ويمشى على راحته ما بين نقطة وأخرى دونما قلق؟! .. لِمَا يجب أن ينتبه بدقة لموضع العلامة العشرية من الرقم، بينما هي مجرد علامة دخيلة يمكن طردها في أي وقت؟! ... أسئلة كثيرة ظل يسألها لنفسه، لكن أعجبه فكرة أن علماء كثيرين تداولوا ذلك وكانوا يفكرون فيه بأعمق أرواحهم، فرأى ذلك في حد ذاته فنا يستحق تدارسه، أو على الأقل تقديره ..

ظل هكذا أيامًا طويلة ومضت السنة تلو الأخرى وهو يعي مختلف العلوم الهندسية في جزء من عقله ويرميه عند باب مرسمه ... لكنه ذات يوم كان قد أُجهد في رسم لوحة، فتوقف قليلا ليستريح وأخذ ينظر إليها ... وجد أن خطوطها تنحني بشكل مستقيم وكانت التفاصيل موزعة بانتظام على مستوى اللوحة ... نظر إلى طاولة ألوانه فوجدها محدودة ما بين خمسة ألوان وإن كانوا افضل ما استخدم ... كان الرسم جميلا بحق، لكن شيئا ما لم يريحه وكأنه ينظر لقالب ذو زوايا وأضلاع وليس خطوطا متناثرة تطيش بالحيرة التي بداخله ... ثم للحظة انتبه أنه تغيّر كثيرًا، حتى في ملابسه وطريقة كلامه ومشيه ... واكتشف أن العالمين الفني والرقمي بداخله لم يعودان مستقلين كلا في مملكته، بل اشتد عضد أحدهما وزادت أسلحته فغزا الآخر، وكبّل تفاصيله، وأصبح سيد المكان.

ذات يـوم كان جالسـا أمـام معادلـة تدارسـها وكان لابـد مـن تطبيقها عـلى مسـألة مـا لعرضهـا عـلى أسـتاذه الجامعـي ... أخـذ يفكـر مـاذا لـو تصالـح العالمـان معًـا وعاشـا سـويًا عـلى أرضٍ واحـدة ... أي احتـمالات يمكـن أن تنتـج و أي أشـكالٍ فنيـة يمكـن أن تتكـون ... مـاذا لـو جـرب أن يخلـط هـذا بـذاك ويـرى آثـار حضارتهـما معـا ... أمسـك القلـم وضرب عـرض الحائـط بالتسلسـل المنطقـى لأسـتنتاج المعادلـة، وبـدأ يفكـر فى ابعـاد أخـرى اطلقهـا خيالـه ... أخـذ يطـرق تلـك الابـواب الدفينـة فى عقلـه ورأى طـرف حبـل يقـوده لفكـرة مـا فظـل يتتبعـه ... مكـث هكـذا طـوال الليـل حتـى اسـتيقظ صباحـا عـلى (معادلـة فنيـة) وارتـدى ثيـاب مرسـمه، وتوجـه إلى كليتـه وهـو يتخيـل إنبهـار أسـتاذه بهـا...

كان أمامـه طابـورٌ طويـلٌ مـن دفعتـه، فوقـف ينتظـر وحماسـه يـكاد يدفعـه لخـرق الصـف والدخـول أولا ... أخـذ ينظـر لـكل مـن يخـرج ويبتسـم سـعيدا بمـدح أسـتاذه ويعجـب كيـف يجـدون في حلولهـم إبداعًـا، إذا كان مـن بالداخـل يعلـم نتائجهـا مسـبقا ... وبينـما هـو غارقـا في خواطـره سـمع اسـمه فدخـل ...

كانـت علامـات الاسـتغراب عـلى وجـه أسـتاذه تـزداد مـع كل ثانيـة، ثـم أنـزل حاجبيـه فجـأة، واسـتحال إلى علامتـي اسـتفهامٍ ممزوجتين باسـتنكارٍ ... و في بضـع كلـمات مـن الـشرح سـكت أسـتاذه قليـلا ثم أخـبره أن ذلـك غـير مقبـول في دنيـا الأرقـام ... تخيـل لـو اسـتخدمت تلـك المعادلـة في المصانـع والمـدارس والسـفن والطائـرات... هـل

ستنتج شيئا! هل ستبنى! هل ستخرق قوانين الجاذبية والطفو وغيرها من العلوم التي لا يصلح أن تتعامل معها سوى بأدق الأرقام! هل ستمنع الصواريخ وتبطل مفعول القذائف وتوقف الحروب! ... وعندما قاطعه قائلا أن الأرقام ذاتها هي التي أشعلت تلك الحروب قال :

« العلم لا شأن له بذلك... نحن من يخترع الأشياء وهم من يتّخذون القرار باستخدامها على النحو الذى يمليه عليه ضمائرهم ... لا يمكنك ببساطة أن تستبدل التفكير المنطقي بالعبث بدعوى أن النظام لم يغيّر حياة الناس للأفضل ... صدقني لو اختل توازن العالم وتركنا تلك الأفكار تقوده وحدها لاستحال إلى جنونٍ وفوضى، وعندها ستتمنى لو اختفى ذلك الفن الذى تعشقه من الحياة للأبد».

أطرق رأسه متمتا: «ولكن ربما لو ...»
قاطعه استاذه وهو يربت على كتفه : «إنني اثقٌ في عقلك وحماسك لتغيير أفكار العالم .. لكن حتى التغيير له قوانينه وقواعده كلٌ في عالمه لا يخرقه ... الفنون أجمل من أن يمسها النظام والأرقام أعقل من تقبل العبث».

و طمأنه أنه رغم ذلك يستطيع أن يعيش متوازنا وليس هناك غضاضة في أن يُبدع في هذا وذاك ... فنظر الولد إلى الورقة نظرة أخيرة ثم رماها وخرج في صمتٍ ..

حينـما أتى الليـل، وبينـما الغرفـة تغـرق في ظـلامٍ دامـسٍ، كانـت طيـات الورقـة تتملـل في حركـة غريبـة بداخلهـا ... وإذا بـرأس مولودٍ جديـدٍ يطـل منهـا ... وبينـما يحـاول الخـروج وجـد شـباك سـلة المهمـلات العاليـة، وظـلام الغرفـة، وغبـار التجاهـل والنسـيان...

فعاد وانزوى، ثم مات في صمتٍ...

تعالى نغرس الأحلام في أنقاض ماضينا
تعالى نجمع الأشلاء نبعثها...فتحيينا
تعالى فالماضي اليائس المخبول يخنقنا بأيدينا
ويحفر عمرنا.. قبرا
وفي الظلمات يلقينا
تعالي كعبة الأحلام ما أشقى لياليا
لننسج من ظلال الليل صبحا
ونبني من رماد الحلم حلما
فما قد ضاع في الأحزان... يا دنياي
يكـفينا

فاروق جويدة

الخُطبة

«لمَ أنتِ متجهمة هكذا ؟!!! ... إننا بداخل مدينة ملاهي وليس المقابر»

نظرت لصديقتها في شرود ثم ابتسمت ورافقتها للعبة بيت المرايا ... لم تكن تشعر بما يرتسم على وجهها، وكثيرًا ما تخونها ملامحها حينما تسرح في وجوه ذكرياتها البعيدة... تجد نفسها أحيانا تضحك بلا سبب وسط الشارع والناس ينظرون ورائهم بحثا عن مصدر الدعابة فيجدون صفير الرياح ... أو يتجهم وجهها حينما تحادث أحدا فيظن أنها قد ملّت الكلام، وتظل تُقدّم الابتسامة تلو الاعتذار أنها تحب الحديث معه لكنها ليست في مزاج رائق ذلك اليوم، فيكمل وهي تتنقل بجهد بين وديان نفسها ووديان محدثها ...

دائما كانت الذكريات ترافقها أينما ذهبت ... ترى وجوه قد ماتت ولم ينمحِ أثر طيفها بعد ... أو وجوه رحلت فجأة فاحتفظت بصورهم علّهم يذكرونها مرة فيعودون للوداع... أو حتى وجوه حية تعيش بينهم لكن أرواحهم متباعدة فجعلت ترسم بخيالها حكايات بينهم ليس لها وجود في الواقع ... لكن ذلك كان يرهقها كثيرًا وينهك جسدها المنهوك أصلا فيأتي الخيال ليستنفد ما تبقى منه ... ودت لو كانت الذكريات كالإناء المثقوب كلما امتلأ فرغ سريعا ليترك لروحها شيئا من السكون والراحة ... لكنها عندما تفكر تجد أن ذلك ساذج تماما

فكل ما تود التشبث به يكمن في قاع الإناء بالفعل ... وكلما أظلمت الدنيا رجّته بشدة كي يختلط بباقي الذكريات ويبعث فيها حنينا وبهجة لا تمت بما يحدث حولها بصِلّةٍ..

لكن على تحكم تلك الذكريات بها لم تستطع يوما أن تحدثهم أو تعاتبهم... كلما طرقت بابهم تصاعد حاجز الزمن ليفصل بينهم... ودت لو أطلوا برأسهم مرة فيروا تبدل حالها فيفرح أو يغتم أو يندم منهم على ما تركه و فاته منها ... لم تفقد الأمل في ذلك فكانت تتخيل تلك اللحظة التي تقابل فيها إحدى ذكرياتها صدفة وتستعد لذلك جيدا ... كيف سينتصب ظهرها ويرتفع أنفها وتشيح بوجهها كبرياءًا بعدما ظلت تلك الذكرى تتجاهلها وتمتهنها... ستخرج رسائلا ظلت تكتبها بالدموع كل ليلة وتمنحها لذكرى أخرى وستخبرها بكل الحب الذى عجزت عن إظهاره في لحظات يأس منها ... لو استطاعت فقط أن تراهم كي يعرفوا أي إنسانٍ آخر أصبحته اليوم ...

ذات ليلةٍ كانت جالسةً تُقّلب صفحات كتابٍ صغيرٍ فداهمها خاطرٌ غريبٌ للحظة ثم اختفى ... مسحت جبينها ثم استمرت في القراءة من جديد ... برق الخاطر في ذهنها ثانية لكنه تلك المرة كان حادا وواضحا فأغمضت عيناها كي تراه أكثر فخُيّل إليها طيفٌ رقيقٌ يبتسم... لم تتعرف عليه وظنّته إحدى ذكرياتها المنسية قد ضل طريقه وأتى اليوم يجول بخاطرها ... لكنه أخبرها أنه مندوبٌ من أرض الذكريات أرسلوه ليصحبها

إلى حفلٍ كبير يُقام على شرفها كونها الرابط الذى جمعهم ...وأنهم قد سمحوا لها بإلقاء خُطبة تبوح فيها بما اختزنته طوال تلك السنين تجاههم ...نظرت إليه في ذهول وقبل أن تتكلم قال : «لكن بشرط ... ألا تتجاوز مدة الخُطبة عشر دقائق، لأن تجسد أطياف الذكريات بشكلٍ مرئي محدود لن يتجاوز تلك المدة بأية حال »

صرخت في سعادة ثم سكنت في خوف ... ماذا ستفعل! إنه يريدها أن تذهب معه الآن وفورا ... دون سيارتها وفساتينها باهظة الثمن وشهادات تميزها ورسائلها المطوّلة... دونما شيء سوى أمنية قلبها أن تفعل ذلك حقا ... فوجدت في ذلك حافزا كافيا أعاد إليها شيئا من شجاعتها وأمسكت بيده وطارت معه عبر الزمان والمكان الى الأرض التي جرفتها رياح الزمن ..

دخلت قاعة كبيرة مظلمة تملأها رؤوس أطياف لامعة ... كانت الأطياف هادئة لم تُبدِ نظرة عجب ولا انبهار رغم تغير ملامحها ولون شعرها وطريقة مشيها ... أخذوا ينظرون إليها في برود وبعض من الملل فحسب ... لم تهتم وظلت تنظر إلى المنبر الذى سينصبها قاضية ترفع المطرقة وتهوى بحكم الإعدام أو البراءة عليهم دونما محامين ... لقد دافعوا عنهم وأرّقوا ضميرها طوال ثلاثين عاما ماضيا وآن الأوان كي يخرسوا قليلا وتتكلم ... صعدت للمنبر ونظرت إليهم .. كانت وجوههم شاحبة وقد انشغل أكثرهم في أحاديث جانبية واختبأ بعضهم عمدا بين المقاعد

وجلس آخرون في أول صف يرمقونها في فضول وكأنهم يهتمون لسماع كل كلمة ...

أخذت تجيل النظر وتبحث عن وجوهٍ بعينها أتت خصيصا لتلك الأرض كي تواجههم ... لكن كثرة الوجوه وبُعدها حالت بينها وبين التمييز بينهم .. شعرت بالخوف ونظرت للمندوب تلتمس أن يسعفها فأشار لساعة رمادية على جدران القاعة تشير لقرب انتهاء المدة .. كانت الكلمات تغص في حلقها وتتسابق أيهم يخرج أولا، لكنها لم تُرد أن تبدأ بكلمة سوى لذكرى بعينها ... وبينما هي في ارتباكها لمحته من بعيد يشيح بوجهه عنها ويبالغ في الانتباه والحديث لذكرى أخرى تجلس بجانبه ..

كان باردا متعاليا كعهدها به دائما ... لا يكاد ينظر إليها ولا يقبل أن يحاسبه احدٌ حتى في عالم الخيال ... تتذكر رحيله المفاجئ وأخباره البعيدة عن سفره وزواجه بأُخري ...أعدم قلبها دونما محاكمة ولا قضية وجعلها ترضى بالحكم وتبلل أرض المحكمة بدموعها ندما على جُرَمٍ لا تعرفه ... ظلت تهتف باسْمه لكن قضبانه كانت باردة صدئة لا يحركها أنين المعذبين خلفها .... لكنها الآن قاضية ... إن لم تملك شجاعة مواجهته في الواقع فها هو يجلس أمامها لا يملك أن يصم أذنيه عنها حتى لو تعمد الكلام للعدم تجاهلا لها ... لم يعد بإمكانه ان يمحيها ويجعلها تظن أنها لا شيء وأنها لا تستحق حب الكون لها...

تنحنحت قليلا ثم تكلمت فخرج صوتها مرتجفا وألتفت أكثر الموجودين لبعضهم يتساءلون عما قالته ... استجمعت شجاعتها واعتصرت بقبضتها المذياع جيدا ...وبينما تفعل ذلك إذ بسقف القاعة ينفتح ويتسرب منه نور خفيف تدريجيا وإذا بأطياف الذكريات ترتفع وتذوب في النور واحدا تلو الآخر ... نظرت إليهم في ذهول ثم ألتفتت للمندوب فأشار الى عقارب الساعة التي تجاوزت عقاربها المدة المحددة ...

صرخت «انتظروا» فلم يلتفت إليها أحد، حتى طيف أمها الراحلة ابتسم لها للحظة في حزن ثم أذابه نور المكان ... هرولت ودماء قلبها المجروح ترسم خطا ورائها على أرض القاعة وحاولت أن تتشبث بأي ذكرى لكن تبخرهم كان أسرع من حركة يديها ... ركضت تبحث عنه ... ستمنحه ولو كلمة جارحة... صفعة قلم ... نظرة احتقار أخيرة أو حتى دموع شوق لكنه كان أول واحد ملّ ارتباكها وخوفها وذهب للمرة الأخيرة دونما وداعٍ...

أمسكت بيد المندوب في يأسٍ وأثناء ما كانت تطير معه عائدة إلى واقعها تساقطت دموعها فأغرقت ما تبقى من أطلال أرض الذكريات وأخذت تُحصى رسائل وأمنيات وخُطّبا ظلت عمرها كله تحفظها آلاف المرات وتنتظر ...

ثم عندما سُنحت لها الفرصة لتبوح بما يختزنه قلبها..
وجدت أن كلماتها لم تكن لتعيد أطياف الزمن ...

مذكرات لا أحد

أكتب اليوم أول حرف من مذكراتي ... متعة لذيذة بحق أن تسرد حياتك لأناسٍ لا يعلمون عنك شيئا سوى فضولهم الإنساني لنبش تاريخ غيرهم، في حين أنهم لو وضعوا معولا داخل منجم أسرارهم لوجدوا كنوزا أثمن ألف مرة .. من أين أبدأ ... ليس لي تاريخ تصفق له الكلمات ولا عملا عظيما تنحني له ... كل ما هنالك إنني إنسان يريد أن يتكلم... هل يشترط لذلك أن أملك في عقلي خلية ذكاء زائدة أو لسانا لبقا او جيدا أفعوانيا ... إنني أملك هواجس وأفكار وأحلام بلا صفات مميزة ... أقف في الشرفة وانتظر الفجر بفارغ الصبر رغم أني لا أعلم ما سيحمله حقا ... لازلت أرى الدموع في عيون الناس رغم كل محاولاتهم لدفنها وإخفائها ... لازلت أشعر برغبتي في إسعادهم رغم كوني لا أغيِّر شيئا بالفعل ... ربما ذلك في دنيانا لا يعنى الكثير لكن تلك الأشياء الصغيرة هي كل شيءٍ بالنسبة لي ..

كم مضى من العمر؟ لا يهم .. لم أعد أراقب ساعة رملية عتيقة تحسب لي ما بقى من عمرٍ لا أعرفه ... بلا زوج ولا طفل ولا صديقة ولا أم ... ها أنت ترى إنني بلا مقومات الحياة الأساسية لكنى ما زلت على قيد الحياة لا أدرى كيف... لعل الله عز وجل تركني وحدى هاهنا كي أحبه وأتعلق به أكثر ... لعلى حينما لا أجد حضنا يضمني، أجرى كي أسجد بين يديه وأظل أتشبث برقعة النور الصغيرة التي لا يوجد فيها أحدٌ

غـيره ... أقلـت لـك مقومـات الحيـاة! .. انـس كلامـي، فـإني أملـك الحيـاة كلهـا بالفعـل ...

مـاذا قدمـت للدنيـا؟ لا شيء (سـتملُّ تلـك الكلمـة كثـيرًا هنـا لكـن ذلـك أفضـل مـن أن أظـل ّأبهـر عينيـك ؟ ثـم تكتشـف أنى مجـرد مخادعـة أخـرى.. أليـس كذلـك!) ... لكـن انتظـر ...أذكـر أنى ربحـت مـرة جائـزة صغـيرة في الصـف الرابـع الابتـدائي لبراعتـي في القـراءة دونـا عـن صفّـي.. ربمـا كانـت تلـك أسـعد لحظـة أذكرهـا في طفولتـي ... لا أدرى لمـا النجـاح ورؤيـة الهزيمـة في عيـون الأخريـن يخلـف السـعادة! أم أنـه إحسـاسٌ فطـريٌ بالرغبـة في الوجـود أمـام كائنـات لا تعـترف بكونـك إنسـانا إلا إذا كنـت تحمـل لقبـا أو كأسـا مـا ... لمـاذا لا أفـرح إذاً ؟... لم يسـألوني مـرة عـن نـوع الحلـوى التـي أحبّهـا ولا معنـى الشـخبطة التـي أرسـمها عـلى لوحـة الصـف لكنهـم ادعـوا أنهـم يعرفوننـي بالفعـل حينـما رأوا جريـان الكلـمات عـلى لسـاني رغـم أنى كنـت أقـرأ عليهـم كتابـا لا يخصنـي ...حسـنا... ذلـك كان (شـيئا) مـا ...

دعنـي أذكـر أيضـا ... نعـم .. تمنيـت يومـا أن أحقـق حلـما ... لم تأتنـي رؤيـة في المنـام ولا حادثـا أفيـق عليـه ولا علامـة عـلى الطريـق ... كل مـا هنالـك أنى اسـتيقظت مـرة فوجـدت (شـيئا) يتشـبث بقلبـي بقـوة ... ولمـا كنـت قـد خاصمـت الدنيـا وأخرجتهـا مـن حسـباني كان الدخـول لقلبـي سـهلا فاسـتطعتُ أن أرى ذلـك الـشيء بوضـوح وأفهمـه ...كان يرمقنـي مـن كل مـكان ... حينـما

أنـام وأقـرأ وأتكلـم مـع النـاس ... حتـى أنى عندمـا كنـت أتسـلّى في الشـتاء بالنفـخ عـلى النافـذة كنـت أراه يرتسـم عـلى الزجـاج ببخـار المـاء، فأدركـت أنـه تمكـن منـى للأبـد ... حاولـت أن أخـبره أن بلادنـا لا تحيـا فيهـا الأحـلام، بـل تُدفـن وتمـوت فلـم يبـدُ أنـه يفهـم كلمـة واكتشـفت أنـه لـه لغـة غـير لغـات البـشر ... لغـة أفهمـه بهـا، لكنـى لا أسـتطيع أن أماطلـه وأجادلـه وأرد الـكلام ...

خرجـت الى الدنيـا وبـدأت أحـدّث النـاس عنـه فوجـدت أن الأرض تحولـت نتـوءات عميقـة ووجـدت مـن أمامـي لـه ثـلاث عيـون وبـدون فـم ... لم أفهـم، أأنـا مـن صعـدت الى المريـخ أم هـم مـن نزلـوا لـلأرض! لكـن الحـوار اسـتحال سـخرية وهـزلا عـلى أي حـال، وعـدت ذلـك اليـوم ونمـت في يـأسٍ ... حينـما اسـتيقظت وجـدت حُلمـى يحقـن أوردتي بـشيء مـا فلـم أفهـم، لكنـى شـعرت بفـورة أمـل غريبـة تـسرى بداخـلي فخرجـت لأقـاوم الحيـاة ثـم عـدت ثـم خرجـت ثـم عـدت ... ثـم صرخـت فيـه يائسـة فلطمنـي بقـوة ونظـر إلىَّ بأبشـع نظـرة احتقـار يمكـن أن ينظـر لـك بهـا أحـد ... قـال لي :« أنـتِ لا تسـتحقين أن تملـكي مثـلى» ... بكيـت وقلـت «نعـم ...لأننـي لا أحـد» ... فقـال : «لا .. بـل لأنـك لا تريديـن سـوى أن تكـوني لا أحـد»... وذهـب بعيـدا وهـا أنـا حتـى الآن أنتظـر عودتـه وأعـزّى نفـسى بمذكـرات لا طائـل منهـا ... لكنهـا عـلى أيـة حـال تذكّـرني كـم كنـت حمقـاء حـين تركتـه يرحـل ...

مـن أحـب ! .. لا أدرى .. لـو قلـت لـك أحـب ابتسـامة الشـمس وأجنحـة الطيـور ووجـوه الأطفـال وشـقاوة القطـط لضحكـت علىَّ، وظننـت أني أهـرب مـن سـؤال بإجابـة سـؤال آخـر ... لكـن الحقيقـة إننـي أجيـب سـؤالك بـكل دقـة بالفعـل ... الحـب بالنسـبة لي لا يمكـن أن يُختـزل في شيءٍ واحـدٍ أو شـخصٍ واحـدٍ أمنحـه مفاتيـح سـعادتي وشـقاءي، ثـم هـو يعبـث بهـم كيفـما يشـاء ... بـل أنـثره عـلى كل شيء أراه فأحبـه ... حتـى إذا مشـيت في بلـدٍ لا أعرفهـا، أو طريـقٍ مظلـمٍ، وجـدت ذرة حـبٍ أودعتهـا مـن قبـل في كينونـات المـكان تعيننـي عـلى تحمـل الطريـق ... إنـك لا تـدرى كيـف أن طائـرا بعيـدا يتجـه للشـمس لـو أحببتـه يمكـن أن يعوضـك عـن أنـاس خذلـوك كثـيرًا وفارقـوك وحـدك في منتصـف الطريـق.

بالتأكيـد سـئمت ... بـل إننـي أعجـب مـن صـبرك للوصـول لذلـك السـطر فالـكلام المرسـل دون قصـص يثـير في النفـس الملـل بالفعل... لكنـى سـأحكى لـك قصـة... قصـيرة لا تخـف فلـن أكتـب في الآتي بأكـثر مـما سـطرته في السـابق لكنهـا سر بينـي وبينـك ... اتفقنـا ... ذات ليلـة ذهبـت لحفـل صاخـب ولمـا استوحشـت المـكان ولم أجـد رفقـة خرجـت للشرفـة ... كنـت أريـد أن أغلـق عينـي وأسـتمع لصمـت الكـون لعلـه يدمجنـي معـه في كيـان واحـد ويأخـذني بعيـدا... فتحـت عينـي فتسـمرت أمـام نجمـة بعيـدة رغـم الآلاف مـن حولهـا في تلـك الليلـة ... لكنـى شـعرت أن تلـك النجمـة لي ... مكتـوب عليهـا اسـمى .... ليـس الأمـر أبـراج تجمعنـي بأنـاس لم أر أيـا منهـم يومـا مـا ... لكنهـا نجمـة وحيـدة تشـبهني كثـيرًا في

بعدهـا وتوهجهـا ... الغريـب أنهـا حدثتنـي وابتسـمت لي أيضـا... لا تصدقنـي ... حسـنا هـاك دعوتهـا إليَّ كي أزورهـا الليلـة .. أتـدرى... أظــن أنــك ايضــا لــك نجمــة في الســماء لكنــك في خضــم الليــل وانكفائـك عـلى الأرض لا تـكاد ترفـع رأسـك لتراهـا أو تؤمـن بهـا ...

إنى ذاهبة إلى نجمتي الآن ... أتحب أن أوصل كلاما لنجمتك !!
بل انتظر ... تعال معي لتخبرها به بنفسك...

”أنـا لا أصـدّق أنـك تتخـلّى عـن كل ذلك..ألـقِ ولـو نظـرة عـلى كؤوســك الذهبيــة “

”أنت تراها كؤوسًا.. وأنا لا أراها إلا أكوابا فارغة“

من فيلم ديزني -(Cars)

سِبَاقُ الأبِـ..جـ..دِيَةُ

في ذلك اليوم من العام جلست ملكة الضاد بفستانها المنقوش بحروف متناثرة وتاجها الماسي تراقب مراسم الاحتفال... لقد بدأ العام باكرا وتسربت الأيام منذ أخر مسابقة توجت فيها الفائز من بين مائة آخرون ... لازالت تذكر وجوه المتسابقين جيدا وإن لم تتذكر اسم أيٍ منهم حتى الفائز كانت له سحنة مألوفة لكنها غير مميزة ... وبينما هي تستعيد تلك الذكرى أفاقت على صوت يعلن عن بدء كلمة صاحبة الجلالة ...

تقدمت في بطء وتطلعت في آلاف الكلمات التي تنظر إليها ... كانوا كثيرين وبعيدين لكنهم يُحدثون صخبا عاليا ملأ أركان المملكة... أتوا من أزمنة متعاقبة وأماكن مختلفة كي يفتتحوا مراسم سباق (أكثر كلمات العربية شيوعا لذلك العام) ... أخذت تتأمل المتسابقين بزيهم الرمادي الموحد بخطوطه الفضية .. اختلفوا في أشكالهم وأحجامهم وإن اتفقوا في سن ميلادهم ومكان نشأتهم اللذين كانا شرطين أساسيين لدخول حلبة السباق ...

كانت الملكة تبحث في كل ذلك عن كلمة تضمّها لقاموس الكلمات الخالدة من لغة الضاد واختارت تلك البلدة بالذات لما يجرى بها من ظروفٍ استثنائية، فشعرت بحدسها أنها ستجد فيها كلمةً تنال شرف دخول قاموس الضاد الأبدي ... نزلت الى الساحة وأخذت تصافح الكلمات الوليدة وتلتمس في كلٍ منها

بغيتها ... وجدت أغلبها كلمات عادية نطق بها أصحابها جزافا ثم ذهبت أدراج الرياح ... لمحت كلمة تستعد كثيرًا رغم ما بدا عليها من هزال وضعة وأخذت تلوح لها بحماس شديد فأودعتها الملكة ابتسامة رقيقة ثم صرفت نظرها إلى من هم أكثر أهمية ...

وبينما الملكة تصافحهم لمحتها ... كانت كلمة صغيرة للغاية تتلفت حولها وتبحث عمن لفظ بها في ذلك المكان ... لكن شيئا ما فيها لفت انتباه الملكة ... كانت مختلفة في اعتداد رأسها وثقل وزنها رغم حداثة سنها ... وقفت الملكة تحدق فيها طويلا ورغم ما تعلمه من قواعد المسابقة وحيادية النتيجة لكنها انحنت وهمست لها «أنتظرك عند خط النهاية» !!

صعدت إلى المنبر فصمت الجمع وأصغى لقواعد المسابقة التي لا تتغير ولا تتبدل ... وفى كلمات رتيبة أعلنت الملكة أن الكلمة الفائزة هي التي تدخل أكبر عدد من العقول البشرية المتناثرة على أرض الساحة، وكلما سمح لها عقلٌ بالدخول، زاد عدد نقاطها ويجوز المرور أكثر من مرة ... والكلمة الأذكى هي التي تناور وتُقنع العقول بما تملكه من فكرة ومعنى ...

انطلقت صافرة الحكم وبدأ الجمهور في الصراخ لأى كلمة تتجاوز عقلا دونما تمييز ... جلست الملكة تراقب السباق في قلق وبدأ الحماس يشتعل وقد حصدت كل الكلمات عشرون

نقطة أو أكثر ... اعتمدت كلمات منهم على إضحاك العقول فجعلوها تمر في سلام، بل وأعطوها من خيالهم وأفكارهم ما زادها قوة ... إلا أنه كلما مرّ الوقت ازدادت ملا وسماجة وعندما حاولت عبور المزيد أخبروها أن وقتها انتهى، وأن هناك أحداث مستجَدة جعلتها بلا قيمة وغير مضحكة على الإطلاق فيأست وخرجت ... ولم تكن الكلمات المركبة بأكثر حظا فقد تسمرت أمامها العقول تحاول أن تفهمها دون جدوى، وإذا بكل عقل يشير لصاحبه كي تذهب إليه حتى فقدت ثقتها في الفوز وخرجت هي الأخرى...

وكلمات عادية وكلمات وقحة وكلمات ضعيفة كلها لفظتها العقول بعد مدة ...إلا كلمتان ظلتا تركضان وتزدادان قوة ... تلك الكلمة الهزيلة المتحمّسة والكلمة الثقيلة التي تشبث بها قلب الملكة ...

كانت الكلمة الهزيلة لها خطة محددة ... عبور أكثر عدد من العقول الفارغة وإقناعهم بسهولة وضعف معناها الأمر الذى جعلهم يرحبّون بها بسهولة فلم تكن تستنفد منهم جهدا للتفكير والفهم ... في حين ظلت الكلمة الصغيرة تمشى على مهلٍ وتقف أمام كل عقل تحاوره .. من هي؟ .. من أين أتت؟.. لمَ تريد العبور ؟... فكان ينظر إليها أصحاب العقول الفارغة في بلاهة ثم يستدرك أحدهم ويدعوها للدخول كي يتميز بين أقرانه عندما رآها تثير الجدل وسط الساحة ... لكن وحدها تلك العقول التي تشابكت بها الخيوط والأفكار كانت تنظر

إليها في إجلال وتناقشها طويلا، فمضى الوقت ولم تحصد سوى نصف ما حصدته منافستها بالفعل ..

كان الجمهور مستمعا وهتافه حائرا ما بين حماس الأولى وذكاء الثانية ... وبدأت النتيجة بمرور الوقت تتقارب وأصبحت الكلمة الهزيلة في قلقٍ من التعادل فالهزيمة فاعتمدت خطة أخرى ... أن تعيد وتكرر نفسها في العقول أكثر من مرة ... لم يعارض ذلك أيٌ من العقول الفارغة فهي خفيفة كالريح حماسية وسط عقول تتشبث بأي شيء يثير أفكارهم الساكنة... في حين أبت الكلمة الثقيلة أن تنتهج تلك الطريقة الهزلية في الإقناع وصممت أن تحاور وتُبسِّط معناها كي تدخل عقولا أكثر... وما شعروا سوى بصافرة النهاية تُطلق عند أخر غروب شمس في السنة ...

كان الحماس شديدا والجماهير تكاد تجن من الصراخ... تقدمت الملكة من المنصة فسكن الكل على الفور ... وجدت النتيجة تعلن فوز الكلمة الهزيلة التي أخذت تتقافز في سعادة، بينما وقفت الأخرى في صمتٍ يخالطه كبرياءٌ وكأنه لم يعنها يوما أن تحصد كأسا ولا أن يهتف باسمها أحدٌ ...وقفت الملكة حائرة.. كانت الشروط واضحةً لكنها لم تقتنع...بالتأكيد حينما أقام أجدادها تلك المسابقة لم يفكروا بتلك الطريقة أو ربما لم يخطر على بالهم أن يأتي يوم ويصل لخط النهاية تلك الكلمة الهزيلة التافهة ... نظرت في شرود إلى الجمع المنتظر وأعلنت أن النتيجة

والاحتفال سيتمان غدا في مراسم تليق بجلال اللغة وعراقتها ...

جلست في قصرها ليلا تُقلب تاريخ الفائزين على مر العصور القديمة ... وجدت أن أغلبهم بالفعل لا يختلفون كثيرًا... كلهم بلا معنى ولا تفهمهم ولا تقيم لهم وزنا ... وبينما تغلق الكتاب في يأسٍ لمحت ملحوظة صغيرة في أخر صفحة مكتوبة بماء الذهب ... أخذت تعيد قراءتها أكثر من مرةٍ ونامت وشبح ابتسامة يرتسم على ثغرها ...

أشرق الصباح على ساحة السباق تزدان بأعمدةٍ من رخامٍ يحيطها شرائط حمراء مضفرة بأخرى بيضاء... بدأ طابور العرض بدخول المتسابقين تباعا فتعالى صياح جمهور الكلمات تحيةً لهم ... ثم دخل كأسٌ ذهبي هائل الحجم تحيط حافته حبات لؤلؤ منتظمة، وكان حراسه متحفزين بشكل غير عادى لأى نقطة تعبر ... ثم تبعه كتاب ضخم وضعه الحراس في مكانٍ بعيدٍ داخل الساحة ... دخلت الملكة في وقارٍ وحيت الكلمات بانحناءة من رأسها ثم اعتلت المنصة وبدأت تتكلم ...

«على غرار تاريخ أجدادنا عهدنا منهم أن الكلمة التي تمر بأكثر عدد من الرؤوس تستحق أن يُحتفى بها ... إننا نؤمن بالأرقام رغم كوننا أبجدية ... تلك المملكة الصديقة شاركتنا الكثير من الكتب والمعارف ومنحتنا الحجة والبرهان لإثبات كثير من الأفكار المخطوطة بكلماتنا ... لذا لم نناقشهم كثيرًا

حينـما عرضـوا الـرأي بـأن يكـون مبـدأ (الأكـثر عـددا) هـو معيـار الفـوز... لذلـك أعلـن أن الكلمـة (.....) هـي الفائـزة !!»

صرخـت الجماهـير فرحـة و تقافـزت الكلمـة الهزيلـة وأخـذت تـأتى بحـركات سـاذجة أمعانـا فى غيـظ منافسـتها، فدهـش لهـا الجمهـور دقيقـة، ثـم تغاضـوا عـن ذلـك في غمـرة نشـوتهم بالمنتـصر ..

تقدمـت منهـا الملكـة وقلّدتهـا وسـام الفـوز، فقبلـت يدهـا والملكـة تبتسـم لهـا في رفـق ... وبينـما تتألـق الصواريـخ الناريـة في السـماء وترسـم اسـم الفائـزة صعـدت الملكـة إلى المنصـة مـرة أخـرى وبدأت تتكلـم في دهشـة مـن الجمـع المحتفـل ...

«لكـن جدودنـا وضعـوا شرطًـا صغـيرا في كتـاب السـبق ... قالـوا لابـدّ للكلمـة التـي تدخـل أبديـة التاريـخ أن تحمـل فكـرة تعيـش وتسـتمر ... لابـدّ أن تكـون ثقيلـة .. ناضجـة .. مناسـبة لـكل حـين ولا تتوقـف عنـد أسـماء البـشر والكائنـات بقـدر مـا تمثـل قضيـة تعتنقهـا العقـول والضمائـر... ونحـن نعـرف ذلـك مـن شيء واحـد فقـط »

ثـم أمـرت الحـراس ففتحـوا الكتـاب وإذا برياح شـديدة تهـب مـن داخلـه تعصـف بالمـكان

فاستطردت الملكة : «أن تقاوم أعاصير الزمان للأبد»

ونظـرت في سـعادة لكلمتهـا التـي تقـف شـامخة في سـكون وترفـع رأســها أمــام الريــاح بينــما تتطايــر الكلــمات الزائفــة والعقــول الفارغــة وبريــق الكــؤوس مــن حولهــا ...

الفهرس

عود ٩
الجميلتان ١٩
خريف الحلم ٣١
الثقب الأحمر ٤١
ينابيع الحجر ٤٩
الملحمة ٥٧
البحيرة السوداء ٦٥
لا أريدك ٧١
١ + ١ = ١ ..... ٧٩
كأس الجارية ٨٩
حبيبة القمر ٩٧
جنون الأرقام ١٠٥
الخطبة ١١٣
مذكرات لا أحد ١٢١
سباق الأبـ .. جـ .. دية ١٢٩

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى ، بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..
بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ، كلمنا ..
هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك
وتكون كاتب معروف ..
لأن فى كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :
محمول: 01005248794 – 01001872290 – 01000405450
أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :
info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

وتابعنا :

kayanpublishing kayan.publish

kayanpubishing kayan_publishing